ناثانيال هوثورن

الحرف القرمزي



دار أسامة

الحرف القرمزي
وقصص أخرى

الكتاب: الحرف القرمزي وقصص أخرى

تدقيق: أحمد الطباع

ترجمة: محمد طريف فرعون

تصميم الغلاف: هشام شحود

طباعة: دار أسامة- دمشق

الجمهورية العربية السورية- دمشق جسر فكتوريا

ص.ب ٤٣٠٦- هاتف ٢٢٣٢٣٢٦- فاكس ٢٢٤٨١٨٠

ناثانيال هوثورن

الحرف القرمزي

دار أسامة
دمشق - مجمع فكتوريا التجاري- هاتف ٢٢٣٢٣٢٦ - ص.ب: ٤٣٠٦

الإهداء

****

إلى من يؤمن بأن باب التوبة لا يغلق في وجه العصاة..

إلى من لا يصرّ على خطئه ويتراجع عنه..

إلى من يظهر الندم على ما اقترف من آثام..

أهدي هذه الرواية

الناشر

تقديم

بقلم: أحمد الطباع

****

لا يوجد في هذه الحياة إنسان معصوم من الزلل، فكلّ منا عرضة للوقوع في الخطأ، لكن العاقل من دان نفسه وحاسبها قبل أن يُحاسب يوم لا ينفع مال ولا بنون، والعاقل من يتراجع عن خطئه ولا يصرّ عليه ويتوب إلى خالقه قبل فوات الأوان.

هذا ما أشارت إليه رواية الكاتب ناثانيال هورتون الأمريكي الذي ولد في بلدة صغيرة تابعة لولاية ماساشوتش الأمريكية عام ١٨٠٤م.

هذه الرواية هي رواية الحرف القرمزي التي أرجو منك أخي القارئ أن تقرأها وتستخلص منها العبرة المتوخاة، والأهم من كل ذلك أن تبذل أقصى جهدك للابتعاد عن الرذيلة التي تودي بك إلى مهاوي الضياع.

أحمد الطباع

لمحة عن حياة الكاتب

****

ولد ناثانيال هوثورن في بلدة صغيرة تابعة لولاية ماسا شوتس الأمريكية عام ١٨٠٤م لوالد بحار كشأن أجداده الأوائل الذين استقروا في القارة الجديدة.

ظهرت أول رواية له في عام ١٨٢٥م أثناء دراسته في الجامعة إلا أنها لم تلق رواجاً، واستمر في مهنة الكتابة ثم تزوج من صوفيا بيبودي عام ١٨٤٢م وهو في سن الثامنة والثلاثين، وكانت زوجته في الواحدة والثلاثين.

تعتبر رواية "الحرف القرمزي" أهم أعماله الأدبية، وإحدى أهم الروايات في الأدب الأمريكي في تلك الفترة، حيث طبعت لأول مرة عام ١٨٥٠م وأكسبته شهرة واسعة كأحد أوائل الكتاب الرمزيين الأخلاقيين، ذلك المذهب الأدبي في الكتابة الذي انتشر في أمريكا مع قدوم المهاجرين الجدد.

ورغم أن ناثانيال هوثورن اعتنق المذهب البيوريتاني الذي كان سائداً آنذاك كشأن أجداده وأبيه، ورغم أنه فتن به، إلا أن رواية "الحرف القرمزي" تعتبر هجوماً عليه من خلال معاناة البطلة "هيستر برين" طوال سبع سنوات بسبب خطيئة الزنى التي اقترفتها.

والقصص القصيرة التي يتضمنها الكتاب نماذج من أعماله حول مختلف مظاهر المذهب البيوريتاني الذي أبهره.

نأمل أن تستمعوا بقراءتها.

المترجم

الشخصيات

****

هيستر برين: شابة متزوجة، ارتكبت جريمة الزنى وعاقبها المجتمع البيوريتاني عقاباً مشدداً عليها.

بيرل: ابنة هيستر.

الموقر آرثر ديمسديل: كاهن بيوريتاني محترم ومحبوب في بلدته.

روجر تشيلينغ ورث: زوج هيستر، طبيب يعالج بالأعشاب.

الحاكم بيلينغهام: حاكم المستعمرة البيوريتانية في نيو إنجلند.

السيدة هيبينز: أخت الحاكم بيلينغهام، أدينت ذات مرة بممارستها السحر، وكادت تلقى حتفها جراء ذلك.

****

الحرف القرمزي

****

الفصل الأول

سجن المستعمرة

احتشد مجموعة من الرجال الملتحين مع مجموعة من النساء أمام المبنى الخشبي، إنهم مؤسسو مستعمرة جديدة يحاولون أن يجعلوا منها مدينة فاضلة تسود فيها الفضيلة والسعادة، إنهم يجتمعون أمام مقبرة المستعمرة، وبجانبها يقع السجن، وطبقاً لمعتقداتهم فإن أسلاف بوسطن هم الذين بنوا أول سجن في شارع كورنهيل، وبعد استيطانهم البلدة لعشرين سنة بان تأثير الزمن على بابه فأصبح أشد كآبة، وبات يصدر صريراً كلما فُتح أو أغلق مُذكراً بأنّات قاطنيه، مصدر البهجة الوحيد في السجن يقع في ساحته الترابية المغطاة بطبقة من النباتات تزهر الورود فيها في الربيع وكأنها تتعاطف مع السجناء وهي تظهر لهم بعض جمال الطبيعة من حولهم.

****

الفصل الثاني

هيستر برين

المرج الذي يقع أمام السجن كان ذات يوم قبل حوالي قرنين من الزمان مرتعاً لسكان بوسطن الأوائل من البيوريتان المتشردين الذي أحرقوا السيدة هيبوز الساحرة وهو المكان الذي كانت تطبق فيه تلك الأحكام القاسية بوازع ديني، فالدين والقانون وجهان لعملة واحدة.

وقفت امرأة بين حشود النساء في ذلك الصباح المشمس من أيام فصل الصيف عندما بدأت قصتنا تراقب تطبيق العقوبة القاسية على هيستر برين، إنها إحدى حفيدات النساء اللواتي قدمن من إنكلترا ذات يوم قبل ستة أجيال أو سبعة للاستقرار في القارة الجديدة، ولهنّ صفات جداتهن الإنكليزيات وملامحهن الناعمة والدقيقة نفسها، وتلمع أشعة الشمس على جباههن المسمرة والمتعرقة وعلى وجناتهن المتوردة.

قالت امرأة من الواقفات في الخمسين من العمر:

– سأخبركن ماذا يجول بخاطري، وهو أمر لمصلحة الجميع، لماذا لا نتعامل نحن النساء مع المخطئة هيستر برين باعتبارنا نساء ناضجات وعضوات محترمات في الكنيسة؟

وقالت امرأة أخرى:

- يقول الناس: إن الموقر ديمسديل حزين جداً من أجل ما حصل بين رعاياه.

- نعم..فالقضاة أناس شديدو الخوف من الله ولكنهم رحماء أيضاً..هذه هي الحقيقة.

أضافت امرأة ثالثة:

- كان يجدر بهم على الأقل وسم جبهة هيستر برين بالحديد المحمى، ويمكنها بعد ذلك تغطية الوسم بعصابة قماشية عندما تريد الخروج من المنزل.

عارضتها شابة تحمل طفلتها قائلة:

- مهما غطت الوسم فسيظل عاره وألمه في قلبها.

- ما الذي تتكلمن عنه؟ وسم وعصابة فوقه..قالت إحدى أقبح النسوة الواقفات..لقد جلبت هذه المرأة العار لنا جميعاً، ويجب أن تموت..ألا يوجد قانون ينص على هذا؟ نعم يوجد قانون في الكتاب المقدس وفي كتاب القانون، يجب على القضاة أن ينفذوه وإلا قلدت زوجاتهم وبناتهم تلك المرأة.

– ليرحمنا الله..صاح رجل يقف على مبعدة منهم، يجب أن تشنق تلك المرأة..صه....هاهو صوت المفتاح يدار في باب السجن، وها هي برين تخرج.

فتح باب السجن على مصراعيه وخرج شبح أسود من ظلمة السجن إلى ضوء الشمس، إنه منادي البلدة متمنطقاً سيفه، وبيده ورقة، إنه رمز القانون البيوريتاني١، ووظيفته قراءة حكم القانون والعمل على تطبيقه على المذنب.

فتح الورقة الملفوفة أمام المحتشدين ثم وضع يده اليمنى على كتف امرأة شابة دفعها إلى الأمام رغماً عنها لتقف أمام الناس، كانت تحمل طفلة بيدها لا تتجاوز ثلاثة أشهر من العمر، أغمضت عينيها وأدارت وجهها ما إن سطع ضوء الشمس على عينيها الصغيرتين.

وقفت الشابة أمام الحشود وضمت طفلتها إلى صدرها بقوة وكأنها تخاف عليها من تلك الوجوه التي راحت تتفحصهما معاً بعيونها، وراحت هي بدورها تجول بناظريها فيهم.

****

[1]– البيوريتانية أو التطهرية: جماعة بروتستانتية ظهرت في إنكلترا ونيو إنجلند في القرنين ١٦–١٧ طالبت بتبسيط طقوس العبادة وبالتمسك الشديد بأهداب الفضيلة....المترجم.

كانت ترتدي ثوباً وقد خيط في منطقة الصدر منه رقعة من القماش حمراء اللون، مطرزة بخيط مذهب على شكل حرف"A" (ز)

الشابة طويلة القامة، أنيقة المظهر، ذات شعر أسود غزير يلمع تحت أشعة الشمس، جميلة القسمات، سوداء العينين، إنها سيدة بكل معنى الكلمة بكل مقاييس الجمال في تلك الفترة رغم أنها قد خرجت لتوها من باب السجن، تلك هي هيستر برين التي أدهشت المتجمهرين من الذين عرفوها قبل أن تدخل السجن والذين توقعوا رؤية امرأة محطمة منكسرة تخرج منه عندما رأوا الجمال يشع منها ويصنع هالة من سوء الطالع فوقها، أبعدت رضيعتها عن صدرها قليلاً ليتسنى لهم رؤية الحرف القرمزي على صدرها الذي خيط على ثوبها بكل حرفية ومهارة، كان له تأثير السحر في أخذها من وسطها العادي ووضعها في بوتقة خاصة بها.

قالت إحدى النسوة:

– مما لاشك فيه أنها ماهرة في الخياطة، ولكن أليس تفننها في حياكة الحرف"A" يعد امتهاناً للقضاة؟ وكأنها فخورة بما فعلت..!

– معك حق، أجابت المرأة القبيحة، سأمزق الحرف الذي صنعته وأصنع لها حرفاً مزرياً فهو يناسبها أكثر.

- أخفضن صوتكن أيتها الجارات..همست الشابة، لا تدعنها تسمعكن.

تقدم أحد أتباع منادي البلدة منهن مشيراً بيديه:

- أفسحن الطريق أيها الناس الطيبون، أفسحن الطريق باسم جلالة الملك، وأعدكم جميعاً أن تتمكنوا من رؤيتها لمدة ساعة، هذه منحة للناس التقاة في مستعمرة ماساشوتس حيث يُجر بالإثم إلى ضوء الشمس..تعالي يا مدام هيستر وأريهم الحرف القرمزي في السوق.

فُتح ممر بين الحشود، وتقدم شماس الكنيسة، ثم مجموعة من الرجال والنساء ومن خلفهم هيستر برين التي سيقت إلى المكان المخصص لتنفيذ العقوبة، واجتمع الرجال والنساء من حولها بالإضافة إلى الصبية الذين لم يفهموا ما يجري سوى أنه فرصة لإعطائهم إجازة نصف يوم من المدرسة.

تقدموا منها وراحوا ينظرون بفضول إليها وإلى الرضيعة التي بيدها، وإلى الإشارة المخزية على صدرها، لم تكن المسافة كبيرة في تلك الأيام من باب السجن إلى السوق، ومع ذلك فقد عانت الكثير خلال قطعها من جرّاء نظرات الناس إليها، ومن تفكيرها بالمصير الذي ينتظرها، وصلت أخيراً إلى المشنقة التي نصبت لها في الزاوية الغربية من السوق قريباً

من إفريز كنيسة بوسطن، ظلت تلك المشنقة منصوبة في مكانها لفترة طويلة في إشارة لتطبيق سيادة القانون.

تقضي عقوبة هيستر برين أن تقف على منصة الإعدام لفترة من الزمن دون أن تُشنق، وهكذا صعدت السلالم الخشبية التي تبلغ علو قامة رجل ليراها جميع من في السوق.

اختلطت مشاعر الجمهور لدى رؤيتها على هذه الصورة، منهم من حزن عليها وتأثر للخزي والعار الذي لحق بها، ومنهم تمنى لو نفذت بحقها عقوبة الإعدام شنقاً لتكون عبرة لغيرها، ومنهم من وجد فيها مجالاً للتسلية والفكاهة ليس إلا.

وقف القاضي والجنرال والقساوسة البيوريتان يرقبونها من شرفة المنزل الذين يجتمعون فيه عادة برضا عن القرار الذي أصدروه بحقها وهو أن يُشهّر بها في مكان عام جزاء ما اقترفت..كان عليها أن تقف هناك وتتحمل نظرات الناس المحدقة بها وبرضيعها وبالشتائم التي يطلقها بعضهم، كان ذهنها يعمل بنشاط مستحضراً صوراً عديدة مختلفة عن المشهد الذي تراه أمامها تماماً، صوراً عن طفولتها، وأيام الدراسة واللعب، رأت صوراً للقرية التي جاءت منها في إنكلترا، ولمنزل والديها المبني من الحجارة الرمادية، رأت صورة وجه والدها ذي اللحية البيضاء، وصورة وجه أمها البسيطة ونظرات الحب والعطف على وجهها، ورأت صورة وجه رجل شاحب ونحيل تدل سيماؤه أنه تلقى

قدراً كافياً من التعلم، صحت من تخيلاتها لتقع عيناها مجدداً على هذا المكان من السوق في المستعمرة البيوريتانية، والناس المتجمهرين أمامها وقد وقفت على منصة الإعدام والحرف "ز" باللون القرمزي على صدرها.

هل أنا أحلم..؟! أيعقل أن يكون هذا صحيحاً؟ ضمت الطفلة بقوة إلى صدرها لدرجة جعلتها تبكي، ثم نظرت إلى الحرف القرمزي المخاط على ثوبها ولمسته بأصابعها لتتأكد أن الطفلة التي بين ذراعيها والحرف القرمزي هما شيئان واقعيان وليسا حلماً مزعجاً..نعم..هذه هي الحقيقة..وها قد تبخر كل شيء آخر سواها..

****

الفصل الثالث

محاكمة هيستر برين

لاحظت هيستر أثناء وقوفها على منصة الإعدام وجود هندي يقف خلف الصفوف، مثل هذا الأمر ليس أمراً نادر الحدوث في المستعمرة الإنكليزية إلا أنه لفت انتباهها هذه المرة لسبب تجهله، كان يقف بجانبه رجل أبيض البشرة، أوربي الملامح والثياب، متوسط العمر، أحد كتفيه أعلى من كتفه الآخر، أخاف هيستر بنظراته إلى درجة جعلتها تضم وليدها بقوة إلى صدرها غير آبهة بصراخه.

رأته بمجرد دخوله إلى السوق، فقد ثبتت نظره عليها، كانت نظرة عادية في البداية تشبه النظر إلى أي شيء دون اكتراث، إلا أنه سرعان ما حدق بها بكثير من الاهتمام وكأنه يعرفها، وعندما لاحظ أن أنظار هيستر مثبتة عليه وأنه خيل إليه أنها عرفته رفع إصبعه بهدوء ووضعها على شفتيه.

ثم وضع يده على كتف الرجل الواقف بجواره وراح يخاطبه بصورة رسمية فيها كثير من اللباقة.

- عفواً أيها السيد...! من تلك المرأة؟ ولماذا وضعت هنا؟

- لابد أنك غريب هنا أيها الصديق...أجاب الرجل ناظراً بفضول إلى الرجل ومرافقه الهندي، وإلا لكنت سمعت بقصة هيستر برين والعمل الشائن الذي اقترفته.

- أنت على حق..أجاب الآخر، أنا غريب أتجول منذ مدة، هلا أخبرتني الآن عن هيستر برين هذه..؟ وما الذي فعلت لتعاقبوها على هذا النحو؟!

- على الرحب والسعة..أنا متأكد أنك ستسر هنا حيث يعاقب المسيء على مسمع ومرأى من الناس هنا في نيو إنجلند، تلك المرأة كانت زوجة لرجل إنكليزي مثقف استوطن منذ مدة طويلة في أمستردام ثم سافر إلى ماسا شوتس مع زوجته، واضطر للبقاء فيها من أجل بعض الأعمال وأرسل زوجته إلى هنا، ولم تسمع عنه أي شيء بعد ذلك..

- آه..فهمت..قال الغريب، ومن والد الرضيعة التي تحملها إذاً؟ يبدو أنه لا يتجاوز عمرها ثلاثة أشهر.

- في الحقيقة يا سيدي مازال هذا الأمر لغزاً محيراً ترفض هيستر الإفصاح عن اسمه، ولم تفلح جهود القضاة التي بذلوها في هذا المجال ربما يقف والد الطفلة بيننا هنا ينظر إليها كما ننظر نحن دون أن نعرف ناسياً أن الله يراه.

- هذا محزن للغاية..قال الغريب معلقاً.

تابع الرجل:

- يظن القضاة أن زوج المرأة قد لقي حتفه في مكان ما، وبسبب ظروف هيستر القاسية لم يحكموا عليها بالموت كما يفعلون عادة في مثل هذه الحالات، بل ترأفوا بها وحكموا أن تقف ثلاث ساعات على منصة الإعدام لكي يراها الجميع ثم ترتدي الحرف "ز" على صدرها طوال عمرها.

- حكمٌ عادل..وبهذه الطريقة ستكون طوال حياتها عبرة لمن يعتبر، كان يجدر أن يقف شريكها في الذنب معها جنباً إلى جنب على منصة الإعدام، سيُعرف قريباً...سيُعرف قريباً..أنا واثق بهذا.

ثم انحنى بلباقة محيياً الرجل وهمس ببضع كلمات في أذن تابعه الهندي وشقّا طريقهما وسط الحشود.

وفي هذه الأثناء كانت هيستر برين مازالت واقفة في مكانها على المنصة وقد ثبتت نظرها على الغريب، ثبتتهما بشكل مكثف لدرجة أنها نسيت كل ما يحيط بها، ولدرجة أنها لم تنتبه للصوت الذي خلفها إلى أن دعاها مرات عدة.

كان ذلك من أجل أن تستدر العطف ليراها الحاكم بيلينغهام الذي جلس على الشرفة المخصصة لعلية القوم والمطلة على السوق، الصوت الذي دعاها كان صوت جون ويلسون أقدم وأكبر رجال الدين في

بوسطن، رجال عالي الثقافة مثل معظم معاصريه وزملاء مهنته، وقف أسفل المنصة ينظر إليها وهو مغمض العين نصف إغماضة مثل رضيعها بسبب نور الشمس.

صعد جون ويلسون درجات المنصة يتبعه رجل ووقف أمام هيستر مخاطباً إياها:

– هيستر برين، جئت مع أخي الشاب هذا– ووضع يده على كتف مرافقه– لكي نتكلم معك أمام الناس ونحاول إقناعك بأن تخبرينا باسم من ارتكب الفاحشة معك، رغم أنه عارضني في أنه من الاستحالة أن تخبرينا باسم شريكك أمام الملأ..ماذا تقول في هذا أيها الأخ ديمسديل؟ هل تكلمها أنت أم تترك الأمر لي؟

صدرت همهمات من علية القوم الجالسين في المنصة وقال الحاكم بيلينغهام:

– أيها الموقر ديمسديل الطيب، مسؤولية هذه المرأة تقع على عاتقك أرجو أن تكلمها وتجعلها تندم على ما فعلت وتعترف باسم شريكها في الخطيئة.

اتجهت أنظار جميع المحتشدين نحو الموقر السيد ديمسديل وهو رجل دين شاب تخرج في إحدى أعظم الجامعات الإنكليزية، ويشتهر بحماسته الدينية الشديدة.

مخاطبة الحاكم بيلينغهام له أمام الملأ وتعلق الأبصار به جعلاه يحمر حياءً ويضطرب قليلاً.

- تكلم إلى المرأة يا أخي..قال السيد ويلسون..اجعلها تعترف.

حنى الموقر ديمسديل رأسه بصلاة صامتة مغمضاً عينيه ثم رفع رأسه وتقدم منها وقال:

- هيستر برين، قال ناظراً إليها..لقد سمعت ما قاله هذا الرجل الطبيب، أطلب منك أن تخبرينا باسم شريكك في الخطيئة من أجل خلاصك، من أجل راحة نفسك، لا تشعري بالأسى أو العطف عليه..من الأفضل له ألا يظل مختبئاً وأن يقف هنا إلى جوارك، ماذا ينفعه سكوتك سوى إضافته خطيئة النفاق إلى خطيئته..؟ ما الذي يدفعك إلى تحمل الخزي والعار بمفردك وأنت واقفة هنا؟ ربما هو لا يجرؤ على الاعتراف بذنبه اجعليه يعترف..ساعديه على الخلاص..قولي لنا اسمه.

كان صوت الموقر عذباً غنياً بالمعاني، ومؤثراً هزّ مشاعر كل من سمعه، حتى الرضيع الذي تحمله هيستر يبدو أنه تأثر بصوت الموقر المؤثر لأنه حوّل نظره إليه، وظن كثير من الناس أنها ستعترف وستبوح باسم شريكها في الإثم ، أو أن المخطئ نفسه سيخرج من بين الشهود ويعترف بخطيئته.

هزت هيستر رأسها..

- لا تستغلي رحمتنا بك أيتها المرأة..صـــاح المـــوقر ويلـــسون، أخبرينـــا باسمه هيا..سنعتبرك تبت ونزيح الحرف القرمزي من صدرك.

- أبداً..أجابت هيستر ناظرة ليس إلـــى المـــوقر الـــذي يكلمهـــا بـــل إلـــى العينين المضطربتين لرجل الدين الـــشاب، لقـــد وُســـم الحـــرف لـــي بعمـــق لدرجة أنك لا تستطيع نزعه..سأتحمل الألم.

صاح رجل بين الحشود:

- تكلمي أيتها المرأة..كفاك عناداً..دعينا نعرف اسم والد طفلتك.

- لن أتكلم..أجابت هيستر وقد شحب لونهـــا وهـــي تـــرد علـــى المـــتكلم الذي عرفته، وطفلتي لن تعرف والدها مطلقاً.

- لن تتكلم مطلقاً..تمتم الـــسيد ديمـــسديل الـــذي كـــان يـــضع يـــده علـــى صدره والعرق يتصبب من جبهته، يا لها مـــن قـــوة وشـــهامة عجيبـــة..لـــن تبوح باسمه..!

يبدو أن الموقر ويلسون كان يعلـــم هـــذا فوقـــف مخاطبـــاً النـــاس حـــول الخطايا والآثام التي تجيش بنفس المرء واعظاً إيـــاهم أن يبتعـــدوا عنهـــا مـــا استطاعوا لكي لا يكون مصيرهم الخزي والعـــار الـــذي تنالـــه هيـــستر الآن التي كانت في هذه الأثناء ما تزال في مكانها تتحمـــل نظـــرات النـــاس إليهـــا، والتعب الذي أنهكهـــا وتحـــاول إســـكات رضـــيعتها التـــي أزعجهـــا صـــياح الموقر فراحت تبكي متململة.

وبعد ذلك أعيدت إلى السجن وتهامس الناس فيما بينهم أن الحرف القرمزي كان يلمع في صدرها أثناء سيرها عائدة إلى السجن.

****

الفصل الرابع

الطبيب روجر تشيلينغ ورث

مرت هيستر برين بحالة من التوتر المستمر بعد أن أعيدت إلى السجن لدرجة احتاجت إلى المراقبة لكي لا تؤذي نفسها أو رضيعها، وكلما اقترب الليل ازداد اضطرابها وصراخها لدرجة جعلت الموقر براكيت آمر السجن يفكر بإحضار طبيب لها، وخصوصاً أن طفلتها بدأت تعاني من اضطراباتها نفسها باعتبارها ترضع من ثدي أمها.

وهكذا جيء بالطبيب روجر تشيلينغ ورث الشهير بالمعالجة بالأعشاب المنتشرة في جوار المستعمرة.

- أرجوك يا صديقي أن تدعني بمفردي مع المريضة، قال الطبيب للسجان.

- إنها لا تهدأ أبداً، وإذا لم يفلح علاجك لها فسأداويها بسوطي هذا لأخرج الشيطان الذي استقر فيها.

ترك السجان هيستر مع الطبيب الذي تفحص الطفلة في البداية بسبب بكائها الشديد ثم فتح حقيبته الجلدية وأخرج منها بعض النباتات مزجها بالماء قائلاً:

- درست الكيمياء القديمة وأقمت مع أناس يعملون في مجال الأعشاب الطبية لأكثر من سنة مما أكسبني مهارة عالية..هاك أيتها المرأة أطعمي طفلتك هذه الأعشاب.

رفضت هيستر ذلك قائلة:

- أتريد قتل طفلتي؟

- امرأة غبية..أجاب الطبيب، لماذا أؤذي طفلتك البائسة والتعيسة الحظ هذه؟ لو كانت الطفلة طفلتي لما صنعت لها دواءً أفضل من الذي صنعت الآن.

ترددت، أخذ الرضيعة من بين ذراعيها وأعطاها الدواء، وسرعان ما ارتاحت الرضيعة وكفت عن البكاء، ثم نامت كعادة الأطفال الصغار في مثل هذه الحالات، نقل الطبيب اهتمامه بعد ذلك إلى الأم، تحسس نبضها وتفحص عينيها في نظرة جعلتها ترتجف لأنها بدت لها مألوفة جداً رغم غرابتها وبرودها، وبعد أن انتهى من معاينتها جلس يصنع لها الدواء من بعض الأعشاب التي اختارها من حقيبته وقال:

- سأصنع لك دواء علمني إياه ذات يوم أحد الهنود، اشربيه سيجعلك تشعرين بالراحة.

قدّم الكأس لهيستر التي أمسكت بها وهي مازالت تنظر إلى الطبيب بعيون مليئة بالشك والتساؤل، ثم قالت أخيراً:

- لطالما تمنيت الموت وصليت من أجله، وإذا كان الموت في هذا الدواء الذي صنعته لي فأرجو أن تخبرني قبل أن أشربه.

- اشربي وأنت مطمئنة يا هيستر برين، أنا لا أريد إيذاءك، لو كنت أريد الانتقام منك إذاً لتركتك تعيشين بدل أن تنعمي براحة الموت، فالعار الذي سيجلبه لك الحرف المخيط على صدرك يكفيك، عيشي وتحملي عار الخطيئة التي ارتكبتها بحق نفسك وبحق هذه الطفلة..سيلحقها العار حيثما حلت وأينما اتجهت.

شربت هيستر قدح الدواء الذي بيدها ثم جلست على حافة سريرها الذي كانت رضيعتها تنام عليه، بينما سحب الكرسي الوحيد الموجود في الزنزانة وجلس عليه بقربها مما جعلها ترتجف خوفاً..لِمَ يجلس مادام قد أنهى المهمة التي جاء من أجلها..؟!

- هيستر..قال، لن أطلب منك أن تحدثيني كيف حصل ووقعت في الإثم فليس هذا هو هذا الذي أريد؟

نظرت هيستر إليه ملياً، كانت قد استعادت عافيتها بعض الشيء.. قالت مرتعدة:

- يا إلهي...! أنت..

- نعم..أنا الذي كنت واقفاً أرقبك وبجواري ذلك الهندي، منذ اللحظة التي تزوجتك علمت أنك لن تكوني مخلصة لي.

– لم أحبك منذ اللحظة الأولى التي تزوجنا فيها، وكنت تعلم ذلك..قالت هيستر.

– نعم..أعلم هذا، وتلك كانت خطيئتي، ومع ذلك حاولت أن أجعلك تحبيني.

– لقد أخطأت بحقك، تمتمت هيستر.

– بل أخطأنا بحق بعضنا وتعادلت كفّتانا قال..ولكن قولي لي يا هيستر من الرجل الذي أخطأ بحقي وحقك؟

– لا تسألني..أجابت هيستر، لن تعرف اسمه أبداً مهما حاولت.

– لن أعرف؟ قال والابتسامة مرتسمة على شفتيه..أأنت متأكدة أنني لن أعرفه؟ ربما كنت تستطيعين إخفاء هويته عن رجال الدين وعن الموقر كما فعلت اليوم عندما سألك، أما بالنسبة إليَّ فسأبحث عنه في كل مكان إلى أن أعثر عليه.

لمعت عينا الرجل عندما نظرت هيستر إليهما لدرجة أخافتها..

تابع كلامه:

– لن تخبريني عن اسمه..ومع ذلك سأعثر عليه...قال بثقة..وأشعر أنه رجل مهم في مجتمعكم هذا، رجل له سمعة طيبة بين الناس، دعيه يختبئ خلف سمعته الطيبة إلا أنني في النهاية سأعرفه..

- كلماتك تخيفني..قالت هيستر.

- شيء آخر أريد قوله لك، يا من كنت في يوم ما زوجتي، قال الرجل..بما أنك احتفظت باسم عشيقك لنفسك فاحتفظي كذلك باسمي لنفسك، لا تخبري أحداً بهويتي، فلا أحد يعرفني هنا، وسأقيم في هذه الديار ما أن أخرج من السجن لأكون قربك وقرب عشيقك.

- لماذا تريد إخفاء هذا الأمر عن الناس؟ سألت هيستر..لماذا لا تخبر الناس به وتطلقني على الفور؟!

أجاب:

- لأنني لا أريد تلطيخ سمعتي بين الناس، لا أريدهم أن ينظروا إليَّ بشفقة على أنني الزوج الذي خانته زوجته، وربما لأسباب أخرى..دعيهم على ظنهم الحالي أنني مت أو انقطعت أخباري عنك كلية، لا تحاولي أن تبدي أي إشارة أو كلمة أو نظرة بأنك تعرفيني، ولا تبوحي بسري إلى الرجل الذي اقترفت فعلك الشنيع معه، واحذري أن تخذليني لأنني سأدمر عندها سمعة عشيقك وحياته بيديّ هاتين.

- سأحتفظ بسرك..اطمئن..أجابت هيستر.

- أقسمي على هذا..قال.

- أقسمت عليه.

نهض روجر تشيلينغ ورث من مكانه وقال:

- والآن يا سيدة برين أتركك مع طفلتك ومـــع الحـــرف القرمـــزي، هـــل تشعرين بخزي الحـــرف الـــذي تحملينــــه علــــى صــــدرك؟ ألا تخـــافين مـــن الكوابيس ليلاً؟

- أراك تتشفى بي..ألا تكفيني عذاباتي؟

هزّ رأسه وابتسم.

****

الفصل الخامس

عزلة هيستر

انتهت الفترة التي يجب على هيستر برين أن تقضيها في السجن وفُتح باب السجن وخرجت مجدداً إلى ضوء الشمس، وشعرت أن هدف سطوع الشمس هو جعل الحرف القرمزي أشد سطوعاً على صدرها كانت خطواتها الأولى وهي في وضعها الحالي شديدة الصعوبة، لأن نظرات الناس مازالت تلاحقها باعتبارها هي التي ارتكبت فعل الزنى ولطخت سمعتها وسمعة مجتمعها المتدين، وعذاب الضمير مازال يعتصر قلبها، إلا أنها قررت أن تجابه الواقع الجديد بشجاعة وصبر وتتحمل عذاباتها كلها، فإما ذلك أو الموت البطيء، إنها تعلم أنها ستصبح مع الأيام رمزاً للخيانة وللخطيئة، وسيشير إليها الوعاظ في خطبهم للناس لكي يأخذوا العظة، ولكي يعززوا وجهة نظرهم القائلة: إن المرأة ميالة بطبعها للخطيئة والإغواء، وهكذا ستتعلم النساء والشابات أن ينظرن إليها وإلى الحرف القرمزي على صدرها وهي ابنة رجل محترم، وسيتعلمن النظر إلى طفلتها التي ستكبر وتصبح امرأة مثلهن.

ومع أن العقوبة التي حلت بها لا تسري لأبعد من حدود مستعمرة البيوريتان البعيدة التي تقيم فيها، ومع أنها تستطيع العودة إلى مسقط رأسها أو الهجرة لأي بلد أوربي آخر إن أرادت ذلك لتخفي شخصيتها وتتخلص من عذاباتها، وتبدأ حياتها من جديد، إلا أنها فضلت البقاء في

ذلك المكان واعتباره موطنها، وكأن هناك رابطاً قوياً يربطها به، وكأن ضميرها يريد لها أن تتعذب جراء فعلتها، ففي عذابها راحة لها، وتطهير لنفسها الخاطئة.

يوجد على أطراف المستعمرة بعيداً عنها كوخ صغير مسقوف بالقش بناه أحد المستوطنين الأوائل ثم هجره بعد فترة لأن التربة التي حوله لا تصلح للزراعة يطل على شاطئ البحر من جهة، وعلى الهضاب المكسوة بالأشجار من جهة أخرى، في هذا المكان المنعزل ذي الإمكانيات البسيطة وبعد موافقة رجال الدين قررت هيستر أن تقيم مع طفلتها، وسرعان ما لحقت بها الظنون إلى هناك.. لماذا تريد هذه المرأة اعتزال الناس؟ وبات الأطفال من باب حب الاطلاع والفضول يتسللون إلى منزلها ويجلسون لمراقبتها من خلال نوافذه وهي تطرز أو تعمل في حديقتها الصغيرة.

عاشت هيستر وحيدة دون صديق يجرؤ على الاقتراب منها، ولم تكن بحاجة لصديق لأنها كانت تشغل نفسها بالزراعة لتأمين الطعام لها ولطفلتها وبالتطريز وهو الفن الوحيد المتاح لنساء المستعمرة، طرزت لنفسها حرفاً على صدرها في غاية الروعة والإتقان أثار اهتمام نسوة المستعمرة عندما رأوه لأن ثيابهن تتسم بالبساطة لكونهن بيوريتانيات، وصرن يطلبن إليها تطريز بعض الأشكال من وقت لآخر وخصوصاً من أجل حضور الاحتفالات العامة مثل احتفال رِسامة الكاهن.

واشتهرت هيستر ببراعتها في تطريز أطواق الرقبة[1] والقفازات وهي الأشياء الضرورية لعلية القوم أثناء تلك المناسبات، أو لحضور مراسم الدفن، كما اشتهرت بتطريز المناديل وملابس الأطفال.

وبالتدريج أصبحت طريقتها في التطريز والأعمال التي تطرزها هي الموضة في ذلك المجتمع البسيط النائي، وازداد الطلب على الأشياء التي تطرزها بشكل كبير لدرجة أشغلت معظم ساعات نهارها وباتت مطرزاتها تزين أطواق رقبة الحاكم ورجال الدين وأطفال المستعمرة، الشيء الوحيد الذي لم يستسغ الناس تطريزها له هو الخمار الأبيض الذي تضعه العروس على وجهها ليلة زفافها، ربما كان سبب ذلك هو إشارة خفية من الناس للخطيئة التي ارتكبتها هيستر بحق زوجها.

لم يكن هدف هيستر جمع المال من جراء أعمال التطريز التي تقوم بها، بل الحصول على الكفاف الذي يمسك رمقها ورمق طفلتها، ولم تُشاهد يوماً وهي ترتدي الثياب الناعمة أو الجميلة أو حتى المطرزة، بل ارتدت دوماً أخشن الثياب، والتطريز الوحيد الذي تحمله هي الحرف "ز" على صدرها، أما ملابس ابنتها فقد كانت أجمل من ملابسها إلا أنها أقلّ زركشة من سائر بنات جنسها، واعتادت هيستر أن تخيط بعض الملابس

****

[1] – أطواق الرقبة: طوق مكشكش كان يرتديه الرجال والنساء في أواخر القرن ١٦ وأوائل القرن ١٧....المترجم.

من حين لآخر للفقراء والمحتاجين، ربما من قبيل محاولتها التكفير عن ذنبها.

كانت السمة البارزة في علاقاتها بمجتمعها هي سمة المنبوذ، إيماءات الذين تلتقي بهم وعدم رغبة الأشخاص الذين تتعامل معهم في البيع أو الشراء في الخوض في أي حديث معها يؤكد لها هذا، كانت بعيدة عن أي اجتماع أو احتفال يقام في البلدة رغم قربها المكاني منها، لا أحد يتعاطف معها بابتسامة عندما يجدها مسرورة، أو بكلمات تأسٍّ عندما يجدها محزونة، حتى الفقراء الذين كانت تخيط لهم الملابس لم يتوجهوا لها بأي كلمة شكر على ما تفعله لهم، أما السيدات اللواتي يشترين مطرزاتها فهن غالباً ما ينظرن إليها بحقد ممزوج بحسد أحياناً على موهبة التطريز التي حباها الله إياها، وقد يمتد الأمر إلى إسماعها تلميحات تجرحها، اعتادت هيستر على تحمل تلك التلميحات وعدم الرد عليها سوى احمرار وجهها، كانت على درجة عالية من الصبر والتحمل، لدرجة أنها امتنعت عن الرد على تلك النسوة بينها وبين نفسها، ويتوقف رجال الدين في الطريق عندما يرونها سائرة ليعظوا الناس ويضربوا المثل بها، حتى عندما تدخل الكنيسة يوم الأحد للصلاة تجد نفسها وقد أصبحت موضوع خطبة الواعظ المفضلة، وتنامى عندها مع مرور الأيام خوف من الأولاد الذين ورثوا عن والديهم فكرة مبهمة في أنها اقترفت ذنباً عظيماً تعاقب عليه تلك المرأة التي تمر بشوارعهم

بصمت تصحبها دوماً ابنتها الصغيرة، سمحوا لها في البداية بأن تمر بسلام ثم صاروا يسمعونها ألفاظاً لا يعرفون معناها تماماً سوى أنها ألفاظ تضايقها، الجميع يعرفون قصتها، والجميع يُسمعونها ما تكره لدرجة خيل إليها أنه حتى أوراق الشجر تتهامس عليها عندما تمر بينها وحتى نسمات الصيف، أما العذاب الإضافي الذي كان عليها تحمله فهو نظرات الغرباء الذين يمرون بالمدينة وتحديقهم بالحرف القرمزي المرسوم على صدرها، ولكن أحياناً في أيام قليلة جداً تشعر بعين ترمقها بعطف شديد للحظات ثم ما تلبث أن تخفي عطفها عليها، ولا عجب في ذلك فهل هي المخطئة الوحيدة في هذا العالم؟

مع مرور الزمن تنامى لديها إحساس غريب بأن هذا الحرف المرسوم على صدرها يمنحها معرفة بالآثام التي يحاول الناس إخفاءها في نفوسهم، وهالها هذا الشعور..هل يوجد آثمون غيرها في هذا المجتمع يجب أن يكتبوا الحرف القرمزي على صدورهم؟ وهل نقاء المجتمع الظاهري من حولها إلا مجرد كذبة؟ وإذا ما عرفت خفايا النفوس فيجب على كثير غيرها كتابة الحرف القرمزي على صدروهم؟ إنها تشعر بهذا الشعور كلما مرت أمام بعض الشابات ونظرن إلى الحرف القرمزي، تشعر بالرعشة تسري في أجسادهن، وباحمرار وجوههن وكأنهن تذكرن شيئاً يحاولن إخفاءه.

****

الفصل السادس

الطفلة بيرل

لم نتكلم حتى الآن كثيراً عن الطفلة، تلك المخلوقة البريئة التي قدر الله لها أن تكون نتاج ذلك الفعل الشنيع الذي تعاقب عليه أمها.

نمت الطفلة وترعرعت تحت أنظار أمها المفعمة بالإعجاب لجمالها وذكائها، وسمتها بيرل "لؤلؤة" ليس بسبب بياضها الناصع أو تألقها بل بسبب الثمن الباهظ الذي دفعته لقاء الحمل بها، إنها كنز أمها الوحيد..يا للغرابة..! لقد وسم الناس هذه المرأة بوسم الخطيئة جزاء ما فعلت، الوسم الذي سيلاحقها طوال حياتها، والذي سيقصيها من عطفهم وشفقتهم عليها، ثم حباها الله بنتيجة خطئها الذي تُعاقب عليه بالطفلة التي ستكون الرابط الأبدي بينها وبين من أخطأت معه.

راحت هيستر تراقب ابنتها وهي تنمو وتشب أمامها يوماً بعد يوم باحثة عن أي طباع سيئة اكتسبتها من جراء كونها ابنة سفاح، وازدادت جمالاً يوماً بعد يوم، وازداد جمالها مع جمال الملابس التي تتفنن والدتها في خياطتها لها مستعملة لذلك أفضل أنواع الأقمشة المتوفرة وأقصى ما يستطيع خيالها الخصب الوصول إليه من تصاميم وزركشات، كانت الطفلة محط إعجاب كل من ينظر إليها في البلدة.

كبرت الفتاة وأصبحت بحاجة لأن تلعب مع قريناتها لكن هذا ما لا تستطيع الأم توفيره لها، كُتب على بيرل أن تبقى منبوذة ممنوعة من الاختلاط بغيرها من بنات جنسها، وقد فهمت الفتاة هذا في مرحلة مبكرة من عمرها، فهمته عندما كانت ترافق أمها في جولاتها في المدينة وتلاحظ نظرات الناس إليهما ونفورهما منهما، كانت ترى الأولاد في سنها وهم يلعبون هنا وهناك في الطرقات وتراقبهم بفضول وتتمنى لو تشاركهم ألعابهم، ولكن هذا هو المستحيل بعينه، فهي ابنة الشر والرذيلة، وهم أطفال الخير والفضيلة، وكيف للخير أن يلتقي بالشر..!؟ وهكذا اعتادت بيرل أن تلعب وحيدة في الباحة الخلفية لمنزلها المتواضع مع ما هو متيسر لها من أشياء مع العصا والمكنسة ومجموعة من قطع القماش والزهور، ويتفطر قلب الأم عندما ترى ابنتها تلعب على هذا النحو ولكن ما باليد حيلة...

أحد أول الأشياء التي لاحظتها بيرل على أمها هو الحرف القرمزي الذي يلمع تحت ضوء الشمس بسبب تطريزه المذهب، لمسته الطفلة ذات يوم عندما انحنت أمها عليها وهي ممددة في سريرها استعداداً للنوم، ونظرت إليها وابتسمت، شعرت الأم أن طفلتها تعرف دلالة الحرف ومغزاه فحاولت إخفاءه بيدها بخجل وسرعان ما أجهشت بالبكاء ما أن نامت الطفلة.

****

الفصل السابع

في منزل الحاكم

ذهبت هيستر ذات يوم إلى منزل الحكام بيلينغهام لإيصال زوج من القفازات كانت قد طرزته له بناءً على طلبه وأرادت اغتنام هذه الفرصة للتحدث مع الشخص الذي يمتلك بيده مقاليد الأمور في المستعمرة، فقد تناهى إلى مسامعها أن بعض غُلاة البيوريتان يريدون إصدار قرار لأخذ طفلتها منها، وحجتهم في ذلك أنه يجب أن تربى الطفلة في بيئة مسيحية صالحة لكي لا تكتسب أخلاق أمها وصفاتها، والحاكم من ضمن أولئك الذين يشجعون على اتخاذ مثل هذا القرار.

وهكذا توجهت هيستر القلقة على مصير ابنتها مع بيرل لمنزل الحاكم لتستعطفه ليمنع إصدار مثل هذا القرار الذي سيدمر لها حياتها ويمنعها من حضانة ابنتها، رغم أنها تعلم أنه قد لا يأبه لها ولتوسلاتها بسبب الخطيئة التي اقترفتها.

مشت الطفلة إلى جانبها وهي ترتدي ثوباً قرمزياً من المخمل خاطته لها أمها وطرزته مستعملة كل مهارتها في ذلك، ومزينة إياه بخيوط مذهبة من الأشكال المطرزة.

وعندما اقتربتا من منزل الحاكم شاهدتا بعض الأطفال يلعبون في الجوار وما أن وقعت أعينهم عليهما حتى تركوا لعبهم وراحوا يتأملونهما، قال أحدهم للآخر:

- انظروا..ها هي المرأة ذات الحرف القرمزي، وها هو الحرف القرمزي نفسه يمشي إلى جوارها، هيا نرميهما بالطين.

ولكن بيرل فتاة شجاعة وقفت وعبست في وجوههم وصنعت بيدها بعض الحركات التهديدية مما أوقع الرعب في قلوب الصبية وجعلهم يبتعدون عن طريقهما ثم صرخت بطريقة جعلتهم يهربون مبتعدين عنهما، بعد ذلك استدارت الطفلة بهدوء نحو أمها وابتسمت لها.

وصلتا إلى منزل الحاكم بيلينغهام دون مغامرات أخرى، وهو منزل ضخم مبني من الخشب وقد زينت نوافذه بأشكال من الزجاج الملون.

وصلتا إلى الباب الذي كان على شكل قنطرة وقد ازدان بعدة نوافذ صغيرة الحجم، طرقت هيستر المقبض الحديدي المعلق على جانبه معلنة قدومها، وسرعان ما جاء أخذ خدم الحكام مرتدياً معطفاً أزرق اللون كشأن الخدم في تلك الفترة.

- هل الحاكم المبجل بيلينغهام في الداخل؟ سألت هيستر.

- نعم..قال الخادم محدقاً بعينين مفتوحتين على اتساعهما بالحرف القرمزي الذي لم يره من قبل باعتباره قادماً حديثاً من إنكلترا...حضرته بالداخل ولكن لديه قسّين ولهذا لن تستطيعي رؤيته الآن.

- ومع ذلك سأدخل، قالت هيستر...

وربما اعتقد الخادم من تصميمها ومن الحرف القرمزي الموسوم على صدرها أنها امرأة ذات شأن في هذا المجتمع الجديد كلية عليه فلم يمانع في دخولها.

وهكذا دخلت الأم وابنتها إلى القاعة الفخمة المبنية حسب الطراز المعمول به في بلاده التي قدم منها وتصلها الإضاءة عبر صف من النوافذ العريضة الذي زين أعلاها بأشكال من الزجاج الملون وقد فرشت بأثاث فخم من حقبة إليزابيث وازدانت الجدران بصف من الصور تمثل أجداد عائلة بيلينغهام، بعضهم صُوّر مدججاً بالسلاح، وبعضهم الآخر بملابسه الأنيقة التي تشير إلى العمل المرموق الذي شغله في حياته.

وقعت عينا هيستر وابنتها في إحدى الزوايا على مشجب خاص علق عليه درع فولاذي لماع وخوذة وسيف يرتديها الحاكم بيلينغهام في بعض المناسبات الخاصة أحضرها الحاكم معه من لندن عندما قدم إلى نيو إنجلند.

ذهلت بيرل لرؤيتها الدرع الذي يلمـــع بتـــأثير وهـــج الـــشمس، فراحـــت تتفحصه بمزيج من الإعجاب والانبهار الطفوليين.

صاحت:

- أمي..أرى صورتك هنا.

التفتت هيـــستر إلـــى حيـــث أشـــارت ابنتهـــا فـــرأت انعكـــاس الحـــرف القرمزي على الدرع اللامع، كان يبدو أكبـــر مـــن حجمـــه الطبيعـــي بكثيـــر بسبب تحدب سطح الدرع، وأشـــارت بيـــرل إلـــى صـــورة أخـــرى مـــشابهة لأمها منعكسة على سطح الخوذة إلا أنهـــا صـــورة مـــشوهة أثـــارت ضـــحك الطفلة.

قالت الأم ساحبة طفلتها من أمام الدرع:

- تعالي إلى هنا يا بيرل وانظري عبر الزجـــاج إلـــى الحديقـــة، انظـــري إلى هذه الأزهار الجميلة المزروعة التي لم تري مثلها في الغابة.

ركضت بيرل مستجيبة لنـــداء أمهـــا ووقفـــت أمـــام النافـــذة فـــي أقـــصى الصالة وراحت تنظر إلى حديقة المنـــزل المزدانـــة بـــشتى أنـــواع الأزهـــار والنباتات وقد زرعت على مقربة منهـــا ثمـــار الملفـــوف والكوســـا، وعلـــى أطراف الحديقة كروم العنب وأشجار التفاح من الـــسلالة نفـــسها التـــي جلبهـــا معه الموقر السيد بلاك ستون عندما جـــاء مـــن بـــلاده ليـــستوطن فـــي نيـــو إنجلد، صاحت بيرل طالبة الحصول على وردة حمراء.

– اسـكتي..لا تـصيحي يـا بيـرل، قالـت الأم..أسـمع أصـواتاً فـي الحديقة..الحاكم قادم ومعه بعض الأشخاص.

وفعلاً رأت هيستر وابنتها عدداً من الأشـخاص يقتربـون مـن المنـزل، وسرعان ما التزمت بيرل الصمت وراحت ترقبهم بفضول.

****

الفصل الثامن

محاولة انتزاع بيرل من أمها

كان الحاكم بيلينغهام يتمشى مع ضيوفه في الحديقة، ومن الواضح أنه يعرّفهم أرجاءها، كان القس جون ويلسون ذو اللحية البيضاء يمشي خلف الحاكم بيلينغهام ويتكلم معه مبدياً اعتقاده إمكانية زرع الخوخ والإجاص في نيو إنجلند، وخلفه الموقر آرثر ديمسديل وبجانبه روجر تشيلينغ ورث الطبيب وخبير الأعشابَ، كان من الواضح أنه صديق الموقر الشاب.

تقدم الحاكم وفتح باب قاعة الاستقبال لتقع عيناه على بيرل وهيستر برين..قال مندهشاً:

– ماذا لدينا هنا!؟ كيف دخلتما؟!

صاح السيد ويلسون:

– من هذه الفتاة ذات الرداء القرمزي؟ وما الذي دفع والدتك لتجعلك ترتدين هذه الملابس الغريبة؟

– اسمي بيرل "لؤلؤة"

– بيرل؟ ربما ماسة أو مرجانة أو وردة حمراء، فهذا يناسبك أكثر قال الموقر محاولاً التربيت على كتف الفتاة.

– أين أمك؟ آه..قال عندما رأى أمها..

ثم استدار نحو الحاكم بيلينغهام وهمس:

– هذه هي الفتاة التي تكلمنا بشأنها، وهذه أمها هيستر برين.

– آه..لقد جاءت في الوقت المناسب، سنبحث في هذا الأمر حالاً.

دخل الحاكم ومن خلفه ضيوفه الثلاثة إلى قاعة الاستقبال.

– هيستر برين..قال الحاكم مثبّتاً نظره على الحرف القرمزي على صدرها، هناك مسائل كثيرة بخصوصك، وناقشنا أمرك باستفاضة، وقررنا أن نعفيك من تربية هذه الطفلة البريئة..فأنت لا تصلحين أماً لها، ولا مثالاً يُحتذى بالنسبة لها، ولهذا سنأخذها منك وسنعمل على تربيتها التربية الفاضلة وعلى تعليمها التعليم المناسب، ماذا تستطيعين تعليم ابنتك؟

– أستطيع تعليم ابنتي بيرل من الدرس الذي تعلمته من هذا..أجابت هيستر ووضعت أصبعها على الحرف القرمزي.

– هذه إشارة العار الذي لحق بك أيتها المرأة..أجاب الموقر عابساً، بسبب هذا الحرف نريد أخذ طفلتك منك.

– ومع ذلك..أجابت هيستر بهدوء رغم شحوب وجهها، فقد علمني هذا الحرف الكثير..علمني أن أعلّم ابنتي أن تتمتع بذكاء وحكمة، وأن تبتعد عن المعاصي.

- سنُحكم عقلنا..قال بيلينغهام، وندرس جيداً ما سنقدم عليه من خطوات، أيها الموقر ويلسون..أرجو أن تختبر بيرل هذه لترى إذا ما تلقت التربية المسيحية المناسبة التي تتلقاها البنات في سنها عادة.

جلس الموقر العجوز على كرسي وقرّب بيرل منه محاولاً إمساكها بكلتا يديه، ولأن الطفلة لم تعتد أن يمسكها أحد غير أمها هربت منه نحو النافذة المفتوحة ووقفت على إفريزها، بدت كطائر مستعد للهرب والتحليق في السماء، لم يستغرب السيد ويلسون من تصرفها هذا باعتباره جداً لأحفاد كثر ويحب الأطفال.

- بيرل..قال بهدوء..لا تهربي من الاختبار، هلا أخبرتني يا صغيرتي من خلقك؟

بيرل تعرف من خلقها لأن هيستر برين علمتها ذلك منذ نعومة أظفارها إلا أن الطفلة أرادت مشاكسة الرجل الذي لم تستلطفه فأجابت إن أمها قطفتها من شجيرة وردة برية كانت بجوار باب السجن.

ابتسم روجر تشيلينغ ورث وهمس شيئاً في أذن الموقر، نظرت هيستر إلى وجه الرجل برعب، وتفاجأت من تغير ملامح وجهه التي أصبحت أكثر قساوة وتجهماً.

- هذا مريع...صاح الحاكم مندهشاً من كلام الطفلة، طفلة في الثالثة من عمرها ولا تعرف من خلقها؟ من الواضح أنها مازالت في الظلام هي وروحها، الأمر واضح جداً أيها السادة ولا داعي لمزيد من الأسئلة.

هرعت هيستر نحو ابنتها وحضنتها بقوة، لن تسمح لأحد بأخذها منها فهي التي تحيا من أجلها وستدافع عن ذلك حتى الموت..صاحت هيستر:

- لقد رزقني الله هذه الطفلة برغم كل شيء فعلته، لقد سرقتم كل شيء مني، هذه هي سعادتي الوحيدة وعذابي، أنا أحيا من أجل بيرل وبيرل تعاقبني..إنها الحرف القرمزي الذي أحببت، وهي عقابي في هذه الدنيا، لن تأخذوها مني، سأموت قبل أن أسمح لكم بذلك.

- أيتها المرأة البائسة..قال الموقر، سنحسن رعايتها وتعليمها أكثر منك.

- الله رزقني إياها واستودعها عندي، قالت هيستر برين بصوت عالٍ متهدج العبرات، ولن أتخلى عنها.

ثم استدارت فجأة نحو الكاهن الشاب السيد ديمسديل الذي لم تحاول النظر إليه حتى الآن وقالت:

- تكلم..قل شيئاً..أنت القس الذي كان المسؤول عني وعن روحي وتعرفني أفضل من هؤلاء الرجال..لن أعطيهم طفلتي، تكلم..قف بجانبي..أنت تعرف.. أنت تملك العطف الذي يفتقده هؤلاء الرجال،

وتعرف ما في قلبي وما حقوقي كـأم، وكم هي عاطفتي قوية نحوها، وخصوصاً أنني لا أملك سواها في هذه الدنيا..هي والحرف القرمزي..انظر إليه...لن أتخلى عن طفلتي..انظر إليه.

وعند هذا الحد من المناجاة التي اقتربت كثيراً من حد الجنون تقدم رجل الدين الشاب منها شاحب الوجه وضم يده فوق صدره كعادته عندما يتوتر، بدا الآن مهموماً ومهزولاً أكثر من ذي قبل..بدأ رجل الدين كلامه قائلاً:

- ما تقوله هو الصواب، إنها محقة في مشاعرها، الله أعطاها هذه الطفلة وحباها معها إدراكاً غريزياً لطبيعتها ومتطلباتها مما لا يدركه غيرها، كما أنه يجب ألا ننسى الرابط المقدس بين الأم وطفلتها.

- آه..وكيف هذا أيها المعلم الطيب؟ قال الحاكم مقاطعاً..أوضح كلامك من فضلك.

- هذه الطفلة نتيجة علاقة غير شرعية بين أمها وأبيها، أراد الله لها أن تكون كذلك، وأرادها أن تكون نعمة لابنتها وفي الوقت نفسه كنوع من العذاب لأمها لأنها تتذكر من خلالها خطيئتها التي ارتكبتها، ألا ترون هذا واضحاً في رداء الطفلة. لقد اختارت هذا اللون ليذكرها بالخطيئة التي ارتكبتها، الطفلة كما ذكرت أمها نعمة ونقمة في الوقت نفسه.

- أخشى أن يكون هدف الأم في إصرارها على تربية طفلتها هو رغبتها في تحويلها إلى ما هي عليه الآن، صاح السيد ويلسون.

- لا...لا ليس الأمر كذلك، تابع السيد ديمسديل، لقد فهمت المغزى الإلهي من خلق هذه الطفلة التي حباها الله إياها، صدقوني..وأنا أشعر بهذا، هذه الطفلة هي هبة من الله لتذكرها في كل لحظة بالخطيئة التي ارتكبتها ولتجعلها تبتعد عن حبائل الشيطان في كل مرة يوسوس لها بسوء، ولهذا من الأفضل لها أن تظل الطفلة تحت رعايتها لكي تتوب من خلالها وتعمل على تربيتها التربية الصالحة، ولتذكرها دائماً أنها إذا أحسنت تربيتها ودلتها على طريق الجنة فإن الطفلة ستأخذ بيد أمها أيضاً وستدخلها الجنة..لذلك من أجل مصلحة هيستر برين ومن أجل مصلحة طفلتها المسكينة، دعونا نترك الطفلة في رعاية أمها كما أراد الله.

- تكلمت بجدية غريبة يا صديقي..قال روجر تشيلينغ ورث العجوز.

- كلام أخي الشاب معقول للغاية، قال الموقر ويلسون، ما رأيك أيها المعلم المحترم بيلينغهام؟ ألم تقتنع بكلامه؟

- لقد أحسن الدفاع عن هيستر، أجاب الحاكم..وأقنعني أن نترك أمر هذه المرأة على ما هو عليه الآن ما لم تثر فضيحة جديدة حولها، ويجب أن نعمل على أن تتلقى هذه الطفلة التعليم الديني المناسب على يدك أو على يد المعلم ديمسديل.

أحجم رجل الدين عن الكلام وتراجع خطوتين إلى الوراء نحو النافذة، تقدمت بيرل منه وأمسكت يده بكلتا يديها ورفعت رأسها لتنظر إليه ثم وضعت خدها على ظاهر كفّه بحب غريب لدرجة جعلت أمها تسأل نفسها: أهذه ابنتي بيرل؟

نظر رجل الدين إلى الطفلة وتردد قليلاً قبل أن يمسح رأسها بيده ثم ينحني ويقبّل جبهتها.

ضحكت بيرل وابتعدت عنه بمرح..

قال روجر تشيلينغ ورث معلقاً:

– طفلة غريبة تشبه أمها، ولكن أليست تشبه أحداً نعرفه؟ ألا نستطيع معرفة والدها من خلال ملامح وجهها؟

– هذا إثم..يجب ألا ننساق وراء الظنون..قال السيد ويلسون، من الأفضل أن ندع الأمر على ما هو عليه ولا نحاول كشف هوية والدها ما لم ترد العناية الإلهية غير ذلك.

وهكذا انتهت المقابلة بشكل مرضٍ وغادرت هيستر وبيرل القاعة، وبينما هما تغادران المنزل صادفتا السيدة هيبينز أخت الحاكم بيلينغهام سيئة الطبع التي حوكمت قبل سنوات عدة بتهمة ممارسة السحر.

– أنت..! أنت..! قالت الساحرة، ما رأيك أن تذهبي معنا الليلة؟ سنقيم حفلاً صاخباً في الغابة، لقد وعدت الرجل الأسود أن أحضرك معي.

– اعتذري منه بالنيابة عني، أجابت هيستر بابتسامة..سأظل في منزلي من أجل صغيرتي، لو أخذوها مني لكنت ذهبت معك بكل رحابة صدر إلى الغابة ووقعت اسمي في كتاب الرجل الأسود وبأحرف من الدم.

– سنحظى بك هناك في وقت آخر..قالت الساحرة وهي تبتسم.

****

الفصل التاسع

طليق هيستر برين

يتذكر القارئ أن الرجل الذي أطلق على نفسه اسم روجر تشيلينغ ورث وأخفى اسمه الحقيقي، ووقف ينظر إلى هيستر برين وهي معروضة في ساحة السوق فوق منصة الإعدام، كان قد وصل لتوه إلى البلدة على أمل أن يلتقي بزوجه التي طال غيابه عنها فإذا به يراها معروضة بهذه الطريقة المشينة أمام العامة بسبب ذنب مشين ارتكبته فقرر تطليقها واعتبر نفسه في حل من الرابط المقدس الذي جمعهما ذات يوم تحت مظلة الزواج، وطلب مها أن تُبقي أمر معرفته بها سراً، وأن يظل الناس على اعتقادهم أنه لقي حتفه غرقاً.

وهكذا استقر في البلدة البيوريتانية واتخذ لنفسه اسم روجر تشيلينغ ورث وعرف عن نفسه أنه طبيب معالج بالأعشاب الطبية مستفيداً من خبرته السابقة في هذا المجال، وسرعان ما نال احترام الناس بسبب ندرة الأطباء في المستعمرة الذين تدفعهم حماستهم الدينية لترك بلادهم الأصلية وعبور المحيط نحو نيو إنجلند، ذاع صيت الطبيب الجديد بسرعة في أنه يستطيع معالجة جميع الأمراض باستعمال النباتات الطبية، وقد استفاد من عدم وجود منافس حقيقي له في هذا المجال في البلدة.

وسرعان ما نمت علاقة حميمة وطيبة بينه وبين الموقر السيد ديمسديل، فقد اختاره روجر تشيلينغ ورث ليكون مرشده الديني والروحي، واستفاد السيد ديمسديل منه بسبب اعتلال صحته وحاجته المستمرة للطبيب والدواء، فقد تدهورت صحته في الآونة الأخيرة وأصبح شديد شحوب الوجه، وعزا الناس ذلك إلى انكبابه على القراءة والدراسة، وعلى الصوم وكثرة الصلاة من أجل السمو بروحه، وقال آخرون إنه سما بروحه لدرجة كبيرة لدرجة أنه لم يعد يصلح لتدنيسها بالعيش في هذه الحياة الفانية القذرة، ومن جهة أخرى فقد قال بتواضع: إنه إذا مات فسيكون هذا لأن العناية الإلهية لا تراه جديراً بإكمال مهمته المقدسة في هذه الحياة، إلا أن المهم في هذين الرأيين المتناقضين أنه ازداد نحولاً وازداد صوته ضعفاً وحزناً.

وفي هذه الأثناء جاء روجر تشيلينغ ورث إلى البلدة، واعتبر كثير من الناس أن مجيئه بمثابة معجزة إلهية لإنقاذ الموقر الصالح ديمسديل، شاهده الناس وهو يجمع الأعشاب الطبيبة من سهول البلدة ومرتفعاتها، ويستخرج جذور النباتات من بعض أشجارها، ثم يصنع المعجزات بها.

وسرت الاستفسارات بين الناس..ما الذي يفعله رجل مثله بكل خبرته وعلمه الذي تفتقد إليه كبرى المدن في هذه المستعمرة القصية؟! ما الذي جاء به إلى القفار؟!

وأجاب الناس أنفسهم عن هذه الاستفسارات أن هذا الطبيب الحاذق خريج كبرى الجامعات الألمانية وقد أسقطته العناية الإلهية من السماء في منزل الموقر ديمسديل من أجل معالجته، أما الناس الأكثر تعقلاً وحكمة من الذين لا يؤمنون بمعجزات من هذا النوع في زماننا هذا فيرون في مجيء روجر تشيلينغ في هذا الوقت بالذات حكمة إلهية بالغة.

وأصبح روجر أحد أبناء أبرشية ديمسديل، وربطته معه صداقة قوية مبنية على الثقة، وانكب على معالجته، قال له ذات يوم:

- لا أريد دواءً.

ولكن كيف لرجل الدين الشاب أن يقول ذلك رغم ازدياد شحوب لونه وازدياد نحوله..وازدياد تهدج صوته! هل سئم الحياة؟! هل بات يتمنى الموت؟ هذا ما سأله زملاؤه وأصدقاؤه في كنيسة بوسطن.

- أفضّل الموت على أن تحاول شفائي..قال الموقر ديمسديل ذات يوم لروجر.

- هذا غريب من شاب بسنك! أجاب روجر تشيلينغ ورث.

كما ذكرنا نمت صداقة بين الرجلين رغم الفارق الكبير في عمريهما، وازداد روجر فضولاً لمعرفته طبيعة مرض ديمسديل وسببه، وربما لهذا حاول أن يتقرب أكثر منه، فبات الناس يروهما يتمشيان على شاطئ

البحر أو في الغابة يتبادلان أطراف الحديث بينما يجمع الطبيب الحاذق أعشابه الطبية من هنا وهناك، ازداد إعجاب رجل الدين بالطبيب وعلمه الغزير، وبات توّاقاً إلى الاجتماع به للاستماع إليه والاستفادة منه، ناقشا معاً كل موضوع، ديني وأخلاقي وكل شأن اجتماعي، وكل شخصية مما حولهما، وبعد فترة من هذه الصداقة الحميمة اتفق الاثنان على أن ينتقل الطبيب للسكن عند صديقه الكاهن، وقوبلت هذه الخطوة بترحاب الناس من أجل أن يسهر الطبيب على راحة رجل الدين الشاب المفضل لديهم خصوصاً أن الأخير لا يريد الزواج، وهكذا قُسم المنزل إلى نصفين، نصفه للكاهن حيث وضع فيه كل كتبه وأوراقه، ونصفه الآخر للطبيب حيث وضع فيه أعشابه وأدوات التقطير وكل مستلزماته الأخرى، وعاش الاثنان على هذه الصورة بأحسن حال، وتحسنت صحة الكاهن الشاب كثيراً بعد هذا الإجراء، إلا أن الأمر لا يخلو من بعض المنغصات، فقد حدث أن أحد الأشخاص ممن كان من سكان لندن في الفترة التي قتل فيها توماس أوفرباير أي قبل حوالي ثلاثين سنة من الآن قد تعرف الطبيب وقال: إنه عرفه باسم مختلف عن اسمه الحالي، وأنه كان مساعداً لطبيب يدعى الدكتور فورمان سجن ذات مرة لمزاولته السحر والطب معاً، وبعد إطلاق سراحه بفترة من الزمن سجن مجدداً لتورطه في مقتل توماس أوفربايز بناءً على طلب خطي من الكونتيسة ايسكس تحثه فيه على قتل توماس الذي كان زوجها في تلك الفترة

باستعمال السحر الأسود، وتلـك القـضية شـغلت الـرأي العـام البريطـاني لفترة طويلة من الزمن في ذلك الوقت، كمـا ألمـح رجـلان أو ثلاثـة مـن سكان البلدة البيوريتانية أن الطبيب كان أسـيراً لـدى الهنـود الحمـر لفتـرة من الزمن، وأنه تعلم منهم فنون السحر الأسود، كمـا أكـد عـدد كبيـر مـن الناس أنهم لاحظوا تبدلاً في هيئة روجر تـشيلينغ ورث منـذ أن سـكن عنـد السيد ديمسديل، فبعد أن كان هادئاً متـأملاً مثقفـاً بـاتوا يلاحظـون ملامـح الشر في وجهه التي لم تكن موجودة من قبل، أو ربما أحسن إخفاءها.

واختصاراً نقول: إنه ظهر شعور متنـامٍ عنـد النـاس مفـاده أن المـوقر آرثر ديمسديل إما أنه تلبسه الشيطان نفسه أو أنه أرسـل لـه أحـد معاونيـه متخفياً بهيئة روجر تشيلينغ ورث، وذلـك كـشأن الكثيـر مـن الشخـصيات ذات المكانة الدينية المرموقـة فـي كـل العـصور فـي العـالم المـسيحي، وتطلع الناس بإيمان لا يتزعـزع إلـى قـدرة المـوقر علـى التغلـب علـى الشيطان....ولكن هل يستطيع السيد ديمسديل فعلاً التغلب عليه..؟!

****

الفصل العاشر

محاولة كشف السر

لطالما كان روجر تشيلينغ ورث طوال حياته هادئاً ولطيفاً رغم عدم دفء عواطفه تجاه من حوله، إلا أنه صادق ومستقيم في تعاملاته معهم، بدأ تحرياته الخفية لمعرفة عشيق زوجته إلا أنه توقف عندما ذهل بما اكتشفه في شخصية صديقه، فقد اكتشف فساداً غريباً لذلك قرر أن يسبر أغواره لمعرفة المزيد.

قال لنفسه ذات مرة: هذا الرجل بالرغم من تقاه الذي يتصنعه وورعه الظاهر على محياه قد ورث طبيعة حيوانية قوية من أمه أو من أبيه، سأعمل على سبر أغواره أكثر علَّ الأمور تزداد وضوحاً.

إلا أن الأمر ليس بهذه السهولة التي تصورها، إنه أشبه بتسلل اللص إلى منزل شخص مستيقظ يتظاهر بالنوم ليسرق منه بؤبؤ عينه، فقد شعر ديمسديل بمحاولات صديقه التسلل إلى نفسه ومعرفة خفاياها إلا أنه لم يظهر له ذلك، كان من طبعه أن لا يثق بأي إنسان حتى لو كان أعز أصدقائه، ولهذا أبقى عينيه مفتوحتين تماماً على صديقه وشريكه في السكن، وظلّ يستقبله كعادته في غرفة مكتبه يومياً، أو يقوم بزيارته في مختبره كعادته ويجلس بكثير من الاهتمام ليراقب تحول النباتات في إناء التقطير إلى قطرات من الدواء.

وذات يوم سأل صديقه روجر تشيلينغ ورث قائلاً:

- من أين تحصل على هذه النباتات ذات الأوراق الداكنة؟

- من المقبرة القريبة من هنا..أجاب الطبيب، إنها جديدة بالنسبة لي لم أرها من قبل في أي مكان، رأيتها تنمو فوق قبر خالٍ من الشاهدة التي تدل على اسم الميت، كانت تنمو فوق جهة القلب وكأنها تحمل سراً دفيناً حاول أخذه معه إلى قبره.

قال السيد ديمسديل:

- ربما أراد أن يفشيه ولكن لم تتح له الفرصة لذلك.

قال الطبيب:

- من أجل هذا نمت هذه النباتات الداكنة من قلبه وكأنها تظهر الجريمة التي ارتكبها ولم يستطع البوح بها، وكأن قوى الطبيعة تجمعت لتفشي السر الدفين.

- هذه مجرد أوهام يا سيدي..أجاب الكاهن..لأنه لا تستطيع قوة غير قدرة الله إفشاء سر أراد صاحبه أن يدفن معه وخصوصاً إذا كان إثماً أو معصية، سيحتفظ به القلب إلى يوم الدينونة عندما تفشى كل الأسرار، لم أقرأ يوماً في الأسفار المقدسة أو أفسر نصاً منها يحث على إفشاء الأسرار كنوع من التكفير عن الذنب، بل أظن أن صاحب تلك الأسرار

سيكون سعيداً عندما يفشيها يوم الحساب لأنه قد تخلص من عبئها الذي يثقل كاهله.

- إذاً لماذا لا يفشيها هنا وهو على قيد الحياة؟! سأل روجر تشيلينغ ورث.. لماذا لا يريح نفسه من عبئها؟!

- معظمهم يفعلون ذلك..قال رجل الدين قابضاً على صدره وكأنه يشعر بألم فيه، اعترف لي الكثير من الناس بخطاياهم ليسوا فقط وهم على فراش الموت بل أيضاً وهم بكامل صحتهم وقوتهم وشهرتهم، وكم أحسست بالراحة التي شعروا بها بعد أن أفشوا لي أسرارهم، وكم أحسست بمقدار سعادتهم لذلك، وكأنهم كانوا على وشك الغرق ثم جاء من ينقذ حياتهم فتنفسوا الصعداء.

- ومع ذلك هناك من يفضلون كتمان آثامهم وذنوبهم في قلوبهم وعدم إطلاع أحد عليها..قال الطبيب.

- هذا صحيح، أجاب السيد ديمسديل، ولكن من يفعل ذلك لابد أن يكون لديه سبب وجيه، أو ربما كان من النوع الذي لا يفضل إفشاء أسراره لأحد، أو لأن إفشاء السر لا يجلب منفعة له أو لمن حوله، بل قد يجلب التعاسة والمآسي إليهم فيفضل كتمانه مع تحمل ألم ذلك.

- هؤلاء الناس يخادعون أنفسهم..قال روجر تشيلينغ ورث، لأنهم يظنون أن في ذلك مصلحة لغيرهم بينما هم في الحقيقة يخشون

الفضيحة، إنهم منافقون يظهرون للناس التقوى والصلاح بينما يتلاعب الشر في قلوبهم الخاطئة.

- ربما كان الأمر كذلك، أجاب الكاهن الشاب ملوحاً بيده ثم غيّر الموضوع قائلاً: ما رأيك أيها الطبيب الحاذق..هل تجدني أفضل من ذي قبل؟ هل استفدت من رعايتك الكريمة لي؟

وقبل أن يجيب روجر تشيلينغ ورث سمعا صوت ضحك طفل في الخارج، أطلا برأسيهما من النافذة فوقعت عيناهما على هيستر برين وطفلتها تمران عبر المقبرة، بدت بيرل جميلة كعهدها دائماً، ولكنها كانت تقوم بحركات غريبة وهي تقفز من قبر لآخر، إلى أن وصلت إلى قبر عريض مسطح تزدان شاهدته بشعار النبالة راحت ترقص فوقه، توقفت بيرل عن الرقص بعد صراخ أمها وتأنيبها لما فعلت وتوجيهها في أنها يجب أن تحترم القبور وتتصرف بوقار، وراحت تجمع الثمار الشائكة لنبات الأرقطيون[1] الذي ينمو بجانب القبر، ثم ثبتتها كزينة حول الحرف القرمزي على صدر أمها، لم تستطع هيستر انتزاعها.

ابتسم روجر تشيلينغ ورث لهذا المنظر وقال:

****

[1] – **الأرقطيون: نبات شائك من الفصيلة المركبة....المترجم**

- هذه الطفلة لا تعرف سلطة لأحد عليها، ولا تعرف ما الخطأ وما الصواب، اختلطت الأمور عليها دفعة واحدة، رأيتها قبل عدة أيام وهي ترش الحاكم بالماء..من هي بحق السماء...؟! هل هي الشر بعينه؟!

- إنها تحب كسر القوانين، أجاب السيد ديمسديل بعد لحظات من التفكير وكأنه كان يناقش الأمر مع نفسه، لا أظن أنها تستطيع فعل أي شيء جيد.

سمعت الطفلة أصواتهما فرفعت رأسها نحو النافذة وابتسمت ابتسامة مرحة خبيثة، ثم رمت إحدى ثمار الأرقطيون الشائكة على الموقر السيد ديمسديل، انحنى الأخير ليتجنب إصابته بالقذيفة الشائكة مما جعل الطفلة الشقية تصفق بمرح وحبور، رفعت هيستر رأسها ونظرت إلى الرجلين وتبادل الثلاثة النظرات بصمت لبضع دقائق قبل أن تصرخ الطفلة قائلة:

- تعالي يا أمي قبل أن يمسكك ذلك الرجل الأسود العجوز..ها قد أمسك بالكاهن..تعالي..هيا قبل أن يمسكك..إنه لا يستطيع الإمساك بي.

وهكذا جرت أمها بعيدة عنهما وخرجتا من المقبرة وهي مازالت ترقص وتقفز وتمرح بصخب فوق القبور وكأنها لا تمت لهذا العالم بصلة، ولا تعترف بقوانينه وأعرافه.

- ها قد ابتعدت المرأة..قال روجر تشيلينغ ورث التي لم تخف سرها ونالت جزاء خطيئتها، هل تعتقد أن هيستر برين بائسة بسبب الحرف القرمزي الذي ترتديه؟

- نعم..أعتقد هذا..أجاب الكاهن، ومع ذلك أرى أن هذا أفضل لها، من الأفضل لها أن تظهر معاناتها من أن تخفيها عن الناس.

مرت لحظات من الصمت ثم قال الطبيب:

- سألتني قبل قليل عن صحتك.

- نعم...أجاب الكاهن، وليتك تكون صريحاً معي.

- إذاً سأصارحك بالأمر قال الطبيب ثم سكت للحظات وأردف قائلاً متظاهراً بالانشغال بنباتاته في الوقت الذي كان يراقب صديقه خلسة:

- مرضك ليس عضوي المنشأ..لا تنفعه نباتاتي وأعشابي، إنه شيء في داخلك، شيء ينغص عليك حياتك.

- هذه أحجية أيها الطبيب، قال الكاهن وقد اصفر وجهه وراح ينظر عبر النافذة.

- أود أن أكون صريحاً معك كما طلبت..قال الطبيب، وأستميحك عذراً لأن الصراحة قد تجرح أحياناً، أريد أن أسألك سؤالاً..هل كنت صريحاً معي في إظهار كل الأعراض التي تشعر بها؟

- طبعاً..أيعقل أن يستدعي المرء طبيباً ثم يخفي عنه الأعراض؟!

- إذاً فأنا أعرف كل أعراض مرضك..أليس كذلك؟ قال روجر تشيلينغ ورث.

- نعم.

- إذاً دعني أخبرك أن اعتلال جسدك سببه اعتلال نفسك، لقد فعلت شيئاً وأنت نادم عليه أشد الندم، وعذراً مجدداً لصراحتي، وهذا ما يسبب لك الآلام التي تشعر بها.

نهض الكاهن من مكانه قائلاً:

- حسناً..لا داعي لمزيد من العلاج على ما يبدو ما دام سبب مرضي شيئاً نفسياً.

تابع روجر تشيلينغ ورث:

- مرضك النفسي قد أثّر على صحتك، هلا أفصحت لي عما يؤرقك علّي أستطيع مساعدتك.

- لا..لن أفشيه لك وأنت الطبيب الدنيوي..صاح السيد ديمسديل، إذا كان مرضي نفسياً وروحياً كما تقول فسألجأ إليه..هو الله وحده الذي يستطيع شفاء أمراض الروح، من أنت أيها الكائن الدنيوي الذي تضع نفسك واسطة بين العبد المخطئ وبين ربه؟!

ثم أومأ بحركة عصبية واندفع خارجاً من الغرفة...

قال روجر لنفسه وهو ينظر إلى الكاهن الذي يبتعد عنه وابتسامة تعلو وجهه:

" جيد أنني قمت بهذه الخطوة، لا يوجد ما أخسره، سنعود أصدقاء مجدداً بعد فترة قصيرة، يا إلهي كم تتحكم العاطفة بهذا الرجل..! كيف أسرع مهرولاً خارجاً من أمامي...! لابد أنه قد اقترف عملاً متهوراً في لحظة طيش يؤنبه ضميره عليه هذا الموقر الصالح ديمسديل.

بعد أن هدأ الكاهن الشاب عاد معتذراً إلى صديقه ورجاه أن يسامحه عما بدر منه وأن يستمر في علاجه علّه يبرأ مما هو فيه، قبِل روجر تشيلينغ اعتذاره وعاد إلى عهده في رعاية صديقه باذلاً كل ما في وسعه..

****

الفصل الحادي عشر

تأنيب الضمير

بعد الحادثة التي رويناها سابقاً والتي حدثت بين الكاهن والطبيب تغيرت نظرة كل منهما للآخر رغم أنهما ظاهرياً حاولا ألا يبديا ذلك لبعضهما، فقد وضحت الصورة بالنسبة لورجر تشيلينغ ورث وبات يبحث بهدوء عن طريقة ينتقم بها من عدوه، وخصوصاً أنه أصبح عليماً بكل خفايا نفسه وبنقاط ضعفه وبالطريقة التي يستطيع فيها التأثير عليه.

حدث كل هذا في غفلة من الكاهن، ورغم أنه شعر بشيء شرير يحاك ضده إلا أنه لم يعرف كنهه، صحيح أنه ينظر بعين الشك أحياناً إلى الطبيب شريكه في السكن، وأنه بات ينظر إليه بمزيد من الكراهية والخوف، إلا أنه لم يرقَ في نفسه إلى درجة الشك، لأنه لم يعرف سبباً يدفع الطبيب إلى الانتقام منه أو إيذائه، ولهذا استمر في علاقته الطبيعية بالطبيب ميسراً له في غفلة منه سُبل الانتقام.

وبينما كان الموقر ديمسديل يعاني من آلام مرضه ومن الآلام النفسية التي تثقل روحه ومن تربص الطبيب به، كانت شعبيته تتنامى بين الناس بسبب مهاراته الخطابية وتكلمه عن آثام الإنسان بصدق وواقعية ملفتة حتى فاقت شعبيته إخوانه من رجال الدين من الذين انخرطوا في هذا المجال قبله بفترة طويلة، وكلما ازدادت شعبيته وازداد تعلق الناس به

وازدادوا تأثراً بخطبه التي تلامس شغاف القلوب ازداد بؤساً وشقاءً وإحساساً بالذنب، تعلق الناس به وتأثرهم بكلامه زاد من محنته، إنه يحب الصدق ويحب الحقيقة ولكنه لا يستطيع التلفظ بها أمامهم، تمنى لو استطاع أن يقف أمامهم على منبره ويصيح بهم بأعلى صوته ليخبرهم عن نفسه، تمنى أن يخاطبهم قائلاً:

"أنا الذي تظنوني قديساً..أنا الذي أقف أمامكم على المنبر المقدس مخاطباً إياكم واعظاً لكم..أنا الذي تعتقدون أن خطواتي على الأرض تشع نوراً..أنا الذي عمّدت أطفالكم..أنا الذي تلوت صلوات الوداع على موتاكم..أنا راعي أبرشيتكم الذين تبجلونه وتثقون به..ما أنا إلا دنس وكاذب وخدّاع..

أكثر من مرة صعد السيد ديمسديل المنبر مصمماً ألا ينزل حتى يقول الكلمات المذكورة آنفاً..وأكثر من مرة تنحنح وأخذ نفساً عميقاً عازماً على أن يبوح بالسر الذي يثقل كاهله، وأكثر من مرة بدأ بالكلام ولكن خانته بشجاعته فقال لسامعيه: إنه مجرد شخص تافه جدير بالازدراء، وإنه أسوأ الخطّائين، وإنه شخص بغيض، والذي يثير دهشته أنه كلما قال لهم هذا ازدادوا حباً له وإعجاباً بشخصه، ألم يشعروا أنه يقول الحقيقة؟! لقبوه بالقديس الذي يمشي على الأرض.

تأزم إحساسه بالذنب فلجأ إلى معاقبة نفسه، أخرج سوطاً من خزانته وراح يجلد نفسه سراً به بين الحين والآخر، كان من عادة طائفة

البيوريتان أن يصوموا من أجل تطهير نفوسهم، صام هو الآخر من أجل تطهير نفسه وككفارة لذنبه، وكان يصلي في المساء في الظلام ولكن دون أن يشعر أنه كفّر عن ذنبه.

كان يصاب بالدوار أحياناً أثناء صلواته الليلية، فيخيل إليه أن يرى في زاوية من زوايا غرفته المظلمة أشكالاً شيطانية تهزأ به وتدعوه إلى الذهاب معها، وأحياناً يخيل إليه أنه يرى مجموعة من الملائكة تحوم حوله، كما يرى أحياناً أصدقاءه القدامى ممن رحلوا عن الدنيا ووالده ذا اللحية البيضاء ووالدته التي تشيح بوجهها عنه عندما تمر بجانبه، ويخيل إليه الآن أنه يرى هيستر برين تسوق بيدها طفلتها الصغيرة بيرل بثوبها القرمزي وتشير بإصبعها إلى الحرف القرمزي المطرز على صدرها ثم تشير بإصبعها إلى صدره.

كان يعرف أنها مجرد تهيؤات وأوهام، ولكنها تؤرقه وتعذبه، انتفض واقفاً ذات ليلة بعد أن واتته تلك التهيؤات وقد خطرت بباله فكرة قد تريحه من عذاباته، وارتدى ملابس فاخرة يرتديها عادة عند إقامة الصلوات العامة وانسل خارجاً من منزله.

****

الفصل الثاني عشر

محاولة التكفير عن الذنب

سار وكأنه يمشي في نومه حتى وصل إلى المنصة التي عرضت عليها هيستر برين ذات يوم أمام الناس في ساحة السوق وصعد درجاتها، كانت ليلة مظلمة من ليالي شهر أيار تلبدت السماء فيها بالغيوم، وخلت الشوارع من المارة، جميع سكان البلدة يغطون في النوم، لا خطر عليه أن يراه أحد...يستطيع الوقوف على المنصة حيث وقفت هيستر أمام الناس لساعات حتى بزوغ الشمس دون أن يراه أحد، خوفه الوحيد هو من برودة الجو التي ستؤثر بشدة في جسده النحيل المعلول، وتجعله يصاب بالزكام والسعال فلا يستطيع إقامة الصلوات للناس في اليوم التالي..إذاً لماذا جاء إلى هنا؟! أمن أجل أن يسخر من العقوبة؟! الذي قاده إلى هنا شعوره الشديد بالندم...ياله من حمل ثقيل يؤرقه! عبثاً يحاول التكفير عن ذنبه ولكن لا سبيل إلى ذلك..

وبينما هو واقف هناك على المنصة في استعراض فارغ للتكفير عن ذنبه واتته فكرة مرعبة، شعر وكأن العالم كله ينظر إلى الحرف القرمزي على صدره العاري، كان يشعر أن الحرف القرمزي موسوم في قلبه، وها هو يشعر الآن أنه ظهر في صدره ليراه كل الناس، وجد نفسه دون وعي منه يطلق صرخة عالية في الهواء..اخترقت سكون الليل وارتطمت بكل منازل البلدة النائمة..

لقد فعلتها..قال الكاهن لنفسه..ستستيقظ كل البلدة الآن ويهرول الناس إلى هنا ويروني..

ولكن لم يحصل شيء من هذا..خيّل إليه أن صرخته عالية أيقظت جميع النائمين إلا أنها لم تكن كذلك..وربما من استيقظ منهم عند سماعها ظن نفسه يحلم، أو أنها صرخات ساحرة شريرة تمخر عباب السماء على ظهر مكنستها كما كان الاعتقاد سائداً في تلك الأيام.

جال الكاهن بناظريه على نوافذ بيت الحاكم بيلينغهام المظلمة، وعلى نوافذ منازل البلدة القريبة من السوق فلم يلاحظ أن أحداً استفاق من نومه، ولكن خيل إليه أن الحاكم قد وقف بعد لحظات أمام نافذة غرفة نومه برداء النوم الأبيض كالشبح وراح يحدق بساحة السوق التي تطل عليها نافذته، دقق الكاهن النظر أكثر..إنه لا يحلم..ها هو الكاهن قد أشعل قنديلاً ليستطيع رؤية ما يجري في الخارج، وها هي أخت الحاكم المقيمة في منزله تقف أمام نافذة غرفة نومها وبيدها مصباح هي الأخرى، ربما ظنت أنه صراخ أحد أصدقائها السحرة الذي كانت تمارس معه طقوس السحر ليلاً في الغابة القريبة يدعوها للانضمام إليه.

عندما شعرت باستيقاظ أخيها الحاكم بيلينغهام أطفأت مصباحها بسرعة واختفت فقد كان يتوعدها بإنزال عقوبة أقسى من التشهير بها أمام الناس إذا ما عادت لممارسة السحر، ويبدو أن الحاكم ظنّ نفسه

يحلم لأنه لم يستطع تبين شيء في ظلمة الليل فأطفأ مصباحه هو الآخر وعاد إلى النوم.

هدأت نفس الكاهن إلا أنه سرعان ما تحفزت أعصابه من جديد لدى رؤيته ضوء مصباح قادم نحوه، ها هو شخص قادم نحو مصدر الصوت، وسرعان ما سينكشف سره الذي تمكن من إخفائه لفترة طويلة، سمع وقع أقدام يعرفها تتجه نحوه وتصبح قريبة منه، تعرف صاحبها...إنه أبوه في المهنة وصديقه المحترم الموقر السيد ويلسون الذي لابد أنه كان يصلي بجوار سرير رجل يحتضر كما جرت العادة وهو في طريق عودته الآن إلى منزله.

أصبح من الواضح بالنسبة للكاهن أنه لم يأت بسبب صرخته، بل هو في طريقه إلى المنزل، وعندما أصبح السيد ويلسون بجوار المنصة متلفحاً بردائه الكهنوتي الجنوي، و حاملاً مصباحه بيده لم يتمالك الكاهن نفسه فقال:

- عمت مساءً أيها الموقر الأب ويلسون..تعال إلى هنا من فضلك..انضم إليَّ في هذه الأمسية الجميلة.

- يا إلهي..! صاح السيد ويلسون متفاجئاً..أنت السيد ديمسديل.؟!

ظن للحظات أن هذه هي الكلمات التي نطق بها السيد ويلسون إلا أنه في الواقع لم ينتبه كلياً لوجوده على المنصة، كان كل تركيزه منصباً

على الطريق الموحل الذي يقطعه تحت ضوء مصباحه الخافت، شعر الكاهن براحة عظيمة استغربها عندما علم أن السيد ويلسون قد ابتعد عنه دون أن يراه أو يسمعه.

شعر بأوصاله تتحجر بفعل برودة الجو، ها هو الفجر قد بدأ يبزغ، وما هي إلا دقائق ويستيقظ الناس الذي اعتادوا في تلك الأيام أن يصحوا مبكرين ويخرجوا إلى أعمالهم وحقولهم وسيمرون ولاشك بساحة السوق ويرونه واقفاً مكانه، وقد يظنونه شبحاً شريراً فيهرعون لإيقاظ جيرانهم الذين لم يستيقظوا بعد وقد يوقظون رجال الدين أو الحاكم وأخته لمشاهدة الشبح المتمثل بهيئة الموقر السيد ديمسديل الواقف على منصة العار.

انفجر الكاهن ضاحكاً من هذه الصورة التي تخيلها وسرعان ما تجاوبت معها ضحكة أخرى جعلت الدماء تتجمد في عروقه..

- من؟ بيرل الصغيرة..! صاح الكاهن..هيستر..! أنت هنا؟!

- نعم..أنا هنا! هيستر برين..أجابت باندهاش.

وسمع الكاهن خطواتها وهي تقترب منه صادرة من إحدى الأزقة الفرعية.

- من أين أنت قادمة يا هيستر؟ سأل الكاهن، وما الذي جاء بك إلى هنا؟!

- كنت أشهد موت الحاكم وينتثروب..أجابت هيستر وأخذت مقاساته من أجل الثوب الذي سيكفن به وأنا عائدة الآن إلى منزلي.

- تعالي إلى هنا يا هيستر أنت والصغيرة بيرل..قال السيد ديمسديل، لقد وقفت هنا أنت وبيرل بمفردكما، لم أكن معك تعالي لنقف سوية نحن الثلاثة.

صعدت المنصة بصمت ووقفت على المنصة مع ابنتها، أمسك الكاهن بيد الطفلة، وفي اللحظة التي فعل فيها ذلك شعر بالحياة تدب في عروقه من جديد وكأن تياراً كهربائياً سرى فيه.

همست بيرل:

- أيها الموقر..

- ماذا تريدين أيتها الصغيرة؟ سأل السيد ديمسديل.

- ما رأيك أن تقف هنا معي ومع أمي غداً ظهراً؟

- لا يا صغيرتي..أجاب الكاهن الذي لا يقوى على شيء كهذا بالرغم من الحيوية التي بثت في جسده، لا...سأقف مع أمك ومعك هنا في يوم من الأيام ولكن ليس غداً.

ضحكت بيرل وحاولت سحب يدها من يده، إلا أنه أمسك بها..

- بعد قليل يا صغيرتي..قال.

- هل تعدني أن تمسك بيدي ويد أمي هنا غداً؟

- ليس غداً...قال الكاهن، ولكن في يوم ما.

- متى؟ قالت الصغيرة بإصرار.

- في يوم الدينونة..همس الكاهن..عندما سنقف نحن الثلاثة جنباً إلى جنب.

ضحكت بيرل مجدداً، كانت ضحكة غريبة ثم سحبت يدها من يد الكاهن، وفي هذه اللحظة أضاء نيزك في السماء بضوء أحمر غريب، رفع الكاهن رأسه نحوه وخيل إليه أنه يرى الحرف "A" "ز" في السماء، حرف كبير أحمر اللون أضاء صفحة السماء.

لم ينتبه السيد ديمسديل إلى روجر تشيلينغ ورث الذي كان يقف على مسافة قريبة منهم حتى لفتت بيرل انتباهه لذلك، كان يحدق بهم وقد ارتسمت ملامح غريبة على وجهه.

- من ذلك الرجل يا هيستر؟ قال السيد ديمسديل..لماذا ينظر إلينا بهذه الطريقة المرعبة؟ هل تعرفينه؟

تذكرت وعدها له فالتزمت الصمت.

- أرتعد خوفاً كلما رأيته..قال الكاهن..من هو؟

- أيها الموقر..قالت بيرل، أستطيع أن أخبرك من هو.

- أخبريني..قال الكاهن منحنياً عليها.

تلفظت الصغيرة بكلمات غير مفهومة من التي يتداولها الأطفال في العادة فيما بينهم ثم ضحكت..

- هل تسخرين مني؟

- لأنك لست شجاعاً..أجابت الطفلة، لم تعدني أن تمسك يدي ويد أمي غداً.

قال الطبيب الذي تقدم منهم وأصبح جانب المنصة:

- سيدي المحترم، أيها الموقر التقي ديمسديل، أهذا أنت؟ نحن المثقفون الذين ندفن أنفسنا بين الكتب نحتاج إلى رعاية لأننا نحلم أثناء سيرنا ونمشي أثناء نومنا..تعال يا صديقي العزيز..دعني أقودك إلى المنزل.

- كيف علمت أنني هنا..؟ سأل الكاهن بخوف.

- بصراحة لم أكن أعلم أنك هنا فقد أمضيت معظم ساعات الليل جانب الحاكم وينتثروب محاولاً أن أريحه بأعشابي، ولكن يبدو أنه كان يحتضر ويستعد للسفر إلى الدار الآخرة، وعندما أيقنت من هذا لملمت أغراضي وقفلت عائداً إلى المنزل، وأثناء عودتي شاهدت ذلك الضوء الغريب في السماء..تعال معي أيها الموقر وإلا فستمرض ولن تكون قادراً على إقامة صلوات الأحد غداً..آه..يبدو أن الكتب التي تنكب عليها

تضني العقل، يجب أن تخفف من القراءة وتأخذ قسطاً أكبر من الراحة وإلا فستظل هذه النزوات الليلية تقض مضجعك.

- سأعود إلى المنزل معك..قال السيد ديمسديل.

تحرك الكاهن من مكانه بكآبة وكأنه يمشي في نومه وأذعن للطبيب الذي قاده بعيداً.

وفي اليوم التالي وهو يوم الأحد ألقى الكاهن عظة مؤثرة أجمع الناس أنها أقوى عظة تفوّه بها أثرت بالعديد من النفوس، وبينما هو ينزل من منبره اقترب منه القندلفت[1] حاملاً قفازاً أسود اللون تعرفه الكاهن مباشرة.

- هذا قفازي؟ أين وجدته؟

قال القندلفت:

- عثرت عليه هذا الصباح على المنصة التي يُشهَّر عليها بالآثمين والعصاة، لابد أن الشيطان أوقعها هناك محاولاً السخرية منك بطريقة بذيئة، ولكنه أعمى وغبي كعهدنا به، لأن يداً طاهرة كيدك لا تحتاج إلى قفازات لتغطيها.

****

[1] - **القندلفت: منصب ديني في الديانة المسيحية**

- شكراً لك يا صديقي الصالح..قال الموقر، ولكنه فزع من داخله لأنه كان إلى الآن يظن أن ما مرّ به في الليلة الماضية مجرد هلوسات وأضغاث أحلام، نعم..هذا قفازي بلا شك!

تابع القندلفت كلامه:

- هل سمعت ما يقوله الناس؟ يقولون أنهم رأوا حرف "A" أحمر كبيراً في المساء، فسّروه على أن معناه كلمة ملاك " Angel" يبدو أن الحاكم الصالح وينتثروب قد تحول إلى ملاك في السماء بعد موته الليلة الماضية.

أجاب الكاهن بسرعة:

- لا..لم أسمع بهذا.

****

الفصل الثالث عشر

تغير نظرة الناس لهيستر

صعقت هيستر للحالة التي رأت فيها السيد ديمسديل في آخر لقاء به، لأنها لم تره مدمراً على الحالة التي رأته فيها من قبل، ومن خلال معرفتها للظروف السرية التي لا يعرفها غيرها عرفت أنه بالإضافة إلى إحساسه الطبيعي والمفرط بالذنب الذي اقترفه ولم يحاسب عليه، هناك ما يدبر ضده في الخفاء في غفلة منه، ارتعدت فرائصها لدى وصولها إلى هذه النتيجة بسبب معرفتها لما كان يمثل السيد ديمسديل بالنسبة إليها، وقررت أن تدافع عنه فقد شعرت بنوع من المسؤولية تجاهه لم تشعرها لأحد آخر غيره، فالرابط الذي يربطهما ببعضهما أقوى الروابط، إنه رابط اشتراكهما بجريمة واحدة لها تبعاتها عليهما معاً.

أصبحت بيرل الآن في عامها السابع، وها قد غدا الحرف القرمزي على صدر أمها الذي يلمع بشكل مفلت بسبب التطريز المذهب حوله شيئاً مألوفاً بنظر سكان البلدة، بل وتغيرت نظرتهم إليها مع مرور الوقت، أصبحوا أكثر حباً وتعاطفاً معها لأنها بسبب ظروفها الصعبة مسالمة إلى أبعد الحدود، تعيش على ما تجنيه من التطريز، وتتبرع أحياناً بما يزيد عن حاجتها إلى فقراء البلدة، ولا تطمح لأكثر من ذلك، وفي السنوات التي يجتاح فيها الطاعون أو أحد الأمراض المعدية والمميتة البلدة ويُحجر على المصابين في منزل منعزل تكون هي

السباقة وربما الوحيدة التي تزورهم وتسهر على رعايتهم، تظهر عطفها وتعاطفها معهم عندما ينبذهم الآخرون، لم يعد الحرف "A" في نظر هؤلاء يرمز إلى الفعل الشنيع الذي ارتكبته، بل إن بعضهم راح يفسره على أن معناه "Abel" القادر على مواساة المريض والمصاب.

وعندما يشفون من مرضهم تغادرهم دون أن تنتظر منهم كلمة شكر واحدة على تفانيها في خدمتهم، حتى إنها عندما يعودون إلى حياتهم اليومية في البلدة ويصادفونها في الشارع لا ترفع رأسها لتحييهم، إنها لا تفعل ذلك من باب التكبر على الناس، بل من باب التواضع الشديد، لا تريد أن يشكر لها أحد ما فعلته.

أدرك مسؤولو البلدة وعقلاؤها ومثقفوها صفات هيستر الحميدة أكثر من عامة الناس، ومع مرور الوقت غدا رجال الدين أكثر تسامحاً معها، وأكثر قابلية لغفران خطئها، وكذلك الأمر بالنسبة لعامة الناس، بل تغيرت نظرتهم إلى معنى الحرف الذي على صدرها من مجرد كونه رمز عقوبة تكفيرية لذنب اقترفته إلى رمز لكل الصفات الحميدة التي تتمتع بها، بل أصبحوا يقولون للقادمين الجدد إلى بلدتهم:

" هل رأيتم تلك المرأة ذات الإشارة المطرزة..؟ إنها هيستر نصيرة الضعفاء والفقراء والمرضى، لا مثيل لها في بلدتنا"

بل أصبح كل شخص في البلدة ينظر إلى الحرف القرمزي على صدرها وكأنه إشارة الصليب على صدر الراهب يمنح حاملها نوعاً من القداسة، يمنع اللصوص وقطاع الطرق من أذيتها إذا ما صادفوها أو مروا بمنزلها، بل إن بعضهم يروي أن هندياً أطلق سهمه نحوها فتكسر السهم على صدرها ولم يؤذها..

ومن جهة أخرى كان تأثير الرمز على هيستر ودلالته بالنسبة إلى المجتمع الذي تعيش فيه قوياً ومميزاً في ذهنها، فقد زادها تواضعاً وغيّر في شخصيتها، أصبحت أكثر حزناً وبساطة لدرجة أنها قصت شعرها الغزير اللمّاع، ولجأت إلى إخفائه عن الأنظار بقلنسوة ردائها، وأخفت كل معالم أنوثتها عن الأنظار، ومسحت كل غزيرة نحو أي رجل من قلبها وحواسها.

ومما لاشك فيه أن كل هذا يعزى إلى الظروف الصعبة والقاسية التي مرت بها، فقد وقفت وحيدة تماماً في الحياة دون حامٍ أو نصير، دون عطف أو شفقة، وقفت لتواجه عقوبتها وبجانبها بيرل التي توجب عليها حمايتها وتعليمها ورعايتها، كان ذلك عبئاً ثقيلاً عليها لدرجة أنها تمنت في لحظة من اللحظات أنها لم تلدها.

كان لمقابلتها الموقر ديمسديل في تلك الليلة أبلغ الأثر في نفسها، فقد رأت مقدار المعاناة التي يعانيها، وشعرت أنه يقف على حافة الجنون مالم يكن قد جنَّ فعلاً، ومن الواضح بالنسبة لها أنه بالإضافة إلى آلام

الإحساس بالذنب ووخز الضمير التي يكابدها، هنــاك مــن يــدس لــه الــسم بطريقة أو بأخرى، يوجد عدو يجهله جانبــه طــوال الوقــت متخفيــاً بغطــاء الصديق والمواسي يعبث على هــواه بأعــصابه وصــحته، وتــساءلت فيمــا بينها وبين نفسها هل يتحتم عليها أن تحــذر الــسيد ديمــسديل مــن الخطــر المحدق به؟ أم تبقى على عهدها التــي قطعتــه علــى نفــسها أمــام روجــر تشيلينغ روث ألا تفشي سره لأحد، وبعد تفكير طويــل قــررت فــي النهايــة أن تحذر السيد ديمسديل، ومن أجل هــذا عزمــت علــى أن تقابــل زوجهــا السابق وتحاول ثنيه عن نيته في الانتقام من الــسيد ديمــسديل، ولــم تنتظــر طويلاً فقد أتيحت لها الفرصة عندما كانــت تتمــشى مــع بيــرل فــي جــزء منعزل من البلدة، رأت الطبيب يحمل سلة بيــد وعــصا بيــد أخــرى ينحنــي على الأرض هنا وهناك باحثاً عن نباتات طبية أو جذور معينة.

* * * * * * * * * * * * * * *

الفصل الرابع عشر

هيستر تهدد بفضح السر

طلبت هيستر من ابنتها أن تلعب في الجوار وتجمع الأزهار البرية ريثما تتكلم مع الطبيب، انصاعت بيرل لأمها وراحت تجري هنا وهناك تارة، وطوراً تجمع الأزهار البرية التي يزدان بها المرج..وفي هذه الأثناء اقتربت هيستر منه.

- أريد أن أتكلم معك بشأن يهمنا معاً.

- آه..أهذه أنت يا سيدة هيستر...! بكل سرور، سمعت أشياء جيدة عنك في الآونة الأخيرة، وسمعت أمس من أحد رجال الدين أنهم يناقشون أمرك في مجلس البلدة، يريدون أن يتخذوا قراراً هل يخلعون الحرف القرمزي من صدرك أم لا، وصدقيني يا هيستر أنني روجتهم أن يفعلوا ذلك.

- ليس من حقهم أن يخلعوا هذا الشعار عن صدري..! أجابت هيستر، وإذا رأوا أنني جديرة بذلك فعلاً فيمكنهم إبقاؤه على أن يجعلوه يعني شيئاً آخر.

- إذاً استمري في ارتدائه مادمت ترين أنه مناسب لك..أجاب الطبيب ساخراً.

كانت هيستر في هذه الأثناء تجول بناظريها في وجه الرجل مصدومة بما تراه فقد تغير كثيراً خلال السنوات السبع الماضية، ليس فقط كبر سناً واشتعل رأسه شيباً بل زالت ملامح النبالة والهدوء والرزانة التي عهدتها فيه في الماضي وحلّ محلها ملامح الترقب والحذر والبغض، ويحاول جاهداً إخفاء ملامحه الجديدة بابتسامة صفراوية باهتة دون أن يفلح في ذلك، بل إن ابتسامته تزيد من حلكة قسماته بالنسبة للناظر إليه.

باختصار..من الواضح أن روجر تشيلينغ روث العجوز يتحول إلى شيطان، فقد كرّس كل السنوات السبع الماضية للتفكير بوسيلة ناجحة للانتقام من رجل يقض مضجعه تعذيب ضميره له، وعقدة الذنب التي تلاحقه طوال الليل والنهار، وإضرام تلك العذابات في قلبه بكل الأشكال المتاحة.

- لماذا تنظرين إليَّ هكذا؟! ما الذي ترينه في وجهي؟

- شيء يجعلني أبكي لو ظلت دموع كافية في مقلتيّ، ولكن دعك من هذا الآن أريد أن أكلمك عن صديقك البائس.

- ما به؟! صاح روجر بفضول وكأنه يحب الموضوع ويود مناقشته مع شخص يثق به، لا تخفي شيئاً يا هيستر، بصراحة كنت أفكر في الرجل قبل قليل.

- عندما تكلمنا مع بعضنا لآخر مرة قبل سبع سنوات طلبت مني التكتم عن أمر زواجنا..قالت هيستر، ولم يكن لي الخيار في ذلك فقبلت على مضض، واقتربت أنت منه ورحت تختبره وتبحث في أفكاره وتجعله يموت ببطء بفضل أدويتك التي تسقيه منها، كل هذا وهو غافل عنك، غافل عن عدوه الذي يسكن معه وينام معه في بيت واحد، وبهذه الصورة أرى أنني خنت الرجل.

- لم يكن لديك الخيار..قال روجر تشيلينغ ورث، ثم ما الذي ألحقت بالرجل من ضرر من جراء رعايتي له؟ بل على العكس لقد أحطته برعايتي مجاناً، لم أطلب منه مالاً، كان بوسعي أن أطلب من ذلك القس البائس مبلغاً طائلاً من المال ولكنني لم أفعل، لو لم أساعده لكانت ازدادت عذاباته وخصوصاً خلال السنتين الأوليين بعد التشهير بك لأن روحه لم تستطع تحمل آلام تأنيب الضمير، كان بوسعي افتضاح سره لكنني لم أفعل، إنه يدين لي بهذا الفضل.

قالت هيستر:

- ليته مات.

- نعم يا امرأة..تقولين الحق، صاح روجر..ليته مات، لكنه تعذب بما فيه الكفاية، أحسبه كان يشعر بمراقبتي له وأنني عرفت سره لكنه

لم يجرؤ على أن يكلمني بهذا الخصوص، لقد وضعت لـــه سـماً بطيئـــاً فـــي الدواء لأجعله يموت ببطء ويتعذب في الدنيا قبل أن يتعذب في قبره.

كان الشرر يتطاير من عينيه وهـــو يقـــول هـــذا الكـــلام وكـــأن الـــشيطان تلبسه.

- ألم تعذبه بما فيه الكفاية؟ قالت هيستر بعـــد أن لاحظـــت نظراتـــه..ألـــم يدفع ما عليه؟

- لا أبداً..بل لقد ازداد دينه، ألا تتذكريني كيـــف كنـــت يـــا هيـــستر قبـــل تسع سنوات؟ كانت حيـــاتي هادئـــة وطبيعيـــة، أمـــضي أوقـــاتي فـــي العلـــم والمعرفة، ألا تذكرين هذا؟ كنـــت لطيفـــاً محبـــاً لغيـــري رغـــم انـــك كنـــت تنعتيني بارد المشاعر، ألم أكن كذلك؟

- نعم..هذا وأكثر..قالت هيستر.

- وما الذي أنا عليه الآن؟ شرير يسعى إلى الانتقـــام مـــن الـــذي حـــولني إلى هذه الصورة؟

صاحت هيستر وهي ترتجف:

- أنا..الذنب ذنبي، أنا أكثر مما هو ذنبه، لماذا لم تنتقم مني؟

- يكفيك الحرف القرمزي، أجاب روجر تـــشيلينغ روث، إنـــه أقـــوى مـــن انتقامي.

ثم لمسه بإصبعه وابتسم..

- بل لقد انتقم الحرف منك..أجابت هيستر.

- لا أظن هذا..والآن ماذا تريدين مني؟

- يجب أن أكشف السر، يجب أن يعرفك ديمسديل على حقيقتك، أشعر أن هذا الأمر دين لي عليه، لم يعد من داع لإخفاء السر أكثر من هذا، ولم يعد من حاجة لانتقامك منه، الانتقام لن يفيدك ولن يفيدني ولن يفيد بيرل.

- لا يسعني إلا أن أعجب بك وأشفق عليك أيتها المرأة، قال روجر تشيلينغ ورث، أنت طيبة القلب، ربما لو صادفت رجلاً أفضل مني في مقتبل حياتك لما حصل معك ما حصل، كم أشفق عليك..!

- وأنا أشفق عليك أيضاً، أجابت هيستر، بسبب الكره الذي سيطر على قلبك وعقلك وحوّلك من رجل حكيم هادئ إلى مجرد شرير، ألا تستطيع تطهير نفسك من هذا الشعور وتعود مجدداً الرجل الذي عهدته؟ افعل ذلك من أجل نفسك لا من أجله أو أجلي، سامحه ودع أمر الانتقام منه لخالقه.

- اصمتي يا امرأة..أجاب زوجها العجوز، لن أسامحه هذا صعب..منذ اللحظة التي اقترفت فيه ذلك الفعل الشنيع صممت على

الانتقام، أعلم أنني أسير في طريق الشر، وأنني أصبحت شريراً، ولكن هذا قدري..لابد مما ليس منه بد، الآن اذهبي وافعلي ما بدا لك.

ثم لوّح يده لها مودعاً وعاد لانهماكه في جمع النباتات.

****

الفصل الخامس عشر

فضول بيرل

ودع روجر تشيلينغ ورث هيستر كما ذكرنا وعاد إلى جمع النباتات الطبية، جمع ما أراد من النباتات والجذور التي يستعملها في أدويته التي يصنعها ووضعها في سلته ثم عاد أدراجه وقد انحنى ظهره وكادت لحيته البيضاء أن تلامس الأرض.

التفتت هيستر نحوه وراحت تراقبه وهو يبتعد عنها، وتساءلت عن نوعية الأعشاب التي كان يجمعها ثم قالت:

- كم أكره هذا الرجل..!

ثم سافرت بمخيلتها إلى البيت الذي جمعها ذات يوم معه، وتذكرت كيف كان يقضي الساعات الطويلة بين كتبه وقراءاته مهملاً إياها، وتساءلت كيف اتخذت ذلك القرار الخاطئ وتزوجته، وتذكرت أنها لم تحبه مرة في حياتها وأنها كانت تقنع نفسها بذلك فقط.

كررت بمرارة:

- نعم..أكرهه..لقد خانني، أخطأ بحقي أكثر مما أخطأت بحقه بإهماله لي.

وعندما غاب عن ناظريها التفتت نحو ابنتها:

- بيرل الصغيرة...أين أنت؟

استمتعت بيرل بوقتها بينما كانت أمها منشغلة بالتحدث مع جامع الأعشاب العجوز، وجدت بركة صغيرة من الماء صنعها تجمّع الأمطار فوقفت في وسطها وراحت تخوّض بقدميها فيها وتضحك، ثم تمشت في المرج القريب من شاطئ البحر، وجدت أعشاشاً لطيور البحر بين الصخور، جمعت بعض الحصيات الصغيرة وراحت ترشق بها الطيور المسكينة كلما اقتربت من أعشاشها، ورقصت طرباً بشغب طفولي عندما وجدت أنها كسرت أجنحة أحد الطيور بمقذوفاتها..ثم تمشت على الشاطئ فجمعت الأعشاب البحرية وصنعت منها وشاحاً وغطاء رأس وراحت تتجول فيه متظاهرة أنها حورية البحر، وكلمسة فنيه أخيرة لردائها جمعت بعض الأعشاب الأخرى وقلّدت بأقصى ما تستطيع الحرف الذي غداً مألوفاً جداً بالنسبة إليها الموجود على صدر أمها، الحرف "A" لكنه حرف أخضر جديد، وليس قرمزي اللون.

فكرت بيرل:

ترى هل ستسألني أمي عن معناه..؟!

وهنا سمعت نداء أمها فأسرعت تعدو نحوها وتضحك مشيرة إلى الحرف الذي صنعته على صدرها.

قالت الأم بعد لحظات من الصمت:

- صغيرتي بيرل، لا معنى للحرف الأخضر علـــى صـــدرك، ولكـــن هـــل تعلمين ما معنى الحرف الذي تضعه أمك على صدرها؟

- نعم يا أمي..قالت الطفلة، إنه الحرف الكبيـــر "A" الـــذي علمتنـــي إيـــاه، أول حرف في الأبجدية.

نظرت هيستر إلى وجه الصغيرة ولكنها لم تـــدرك إذا مـــا كانـــت تعـــرف معنى الحرف.

- هل تعرفين يا طفلتي لِمَ تضع أمك هذا الحرف على صدرها؟

- نعم أعرف..أجابت بيرل ناظرة إلى وجه أمهـــا، للـــسبب نفـــسه الـــذي يجعل الكاهن يضع يده على قلبه عندما يتكلم.

- وما السبب؟! سألت هيستر مبتسمة لملاحظة ابنتها الغريبة..

- لا أدري..هذا كل ما أعرفه يا أمي..اســـألي جـــامع الأعـــشاب العجـــوز الذي كنت تتكلمين معه ربما يعـــرف..صـــحيح يـــا أمـــي مـــا معنـــى هـــذا الحرف الذي ترتدينه؟ ولمَ هو على صـــدرك دائمـــاً؟ ولمـــاذا يـــضع المـــوقر يده على صدره كلما تكلم؟

نظرت إلى أمها بجدية نادراً ما تُـــرى فيهـــا، فكـــرت هيـــستر أن ابنتهـــا تحاول بناء ثقة معها وأن ابنتها قد وصلت إلـــى العمـــر الـــذي تـــستطيع فيـــه أن تنظر إليهـــا كـــصديقة تـــشاطرها همومهـــا وأحزانهـــا، بيـــرل الجريئـــة

والمتهورة والحيوية والغريبة الأطوار أحياناً إن لم تحسن تربيتها فسيتغلب الشر في نفسها.

تلك كانت بعض الأفكار التي عصفت بذهن هيستر عندما سألتها ابنتها تلك الأسئلة التي لابد أنها تجول بخاطرها منذ مدة طويلة، وهي واقفة تنظر بجدية غريبة إلى وجه أمها وتمسك بكلتا يديها.

استفاقت من تأملاتها على تكرار ابنتها للأسئلة:

– ما معنى هذا الحرف يا أمي؟ ولِمَ أنت ترتدينه دون سائر نساء البلدة؟ ولِمَ يضع الموقر يده فوق صدره عندما يتكلم؟

فكرت هيستر: ترى ماذا أقول لها..؟! لا أستطيع أن أخبرها الحقيقة..ثم قالت:

– أيتها السخيفة، ما هذه الأسئلة الغريبة؟ هناك أشياء يجب على الصغير ألا يسأل عنها، ما علاقتي أنا بالموقر حتى أعرف لِمَ يضع يده فوق صدره؟ أما بالنسبة إلى الحرف القرمزي فأنا أرتديه من باب الزينة.

ولكن الفتاة الذكية لم تقتنع بجواب أمها فقد أعادت السؤال مرات عدة، مرة عندما كانتا تتناولان طعام العشاء، ومرة عندما كانت هيستر تضعها في سريرها استعداداً للنوم.

ومرة قبل أن تنام نظرت بيرل إلى وجه أمها بعينيها السوداوين اللامعتين وسألت السؤال الذي يبدو أنه تعرف نصف إجابته:

- أمي..ما الذي يعنيه الحرف القرمزي؟

وعندما استيقظت بيرل من نومها في صباح اليوم التالي أطلت برأسها من تحت الغطاء وسألت بطريقة مشاكسة:

- أمي..لماذا يضع الكاهن يده فوق صدره عندما يتكلم؟

- اسكتي أيتها الفتاة المشاكسة، أجابت الأم..لا تضايقيني بهذه الأسئلة وإلا حبستك في الخزانة المظلمة.

كانت هذه هي المرة الأولى التي تقسو هيستر فيها على بيرل وتنزعج منها.

****

الفصل السادس عشر

في الغابة

ظلت هيستر برين على تصميمها على إخبار السيد ديمسديل عن شخصية روجر تشيلينغ ورث الحقيقية مهما كانت النتائج، وحاولت دون جدوى لعدة أيام أن تحظى به على انفراد خلال نزهات التأمل التي يقوم بها عادةً على الشاطئ أو في تلال الغابة المجاورة، لا توجد مشكلة بالنسبة لها أو له إذا ما زارته في منزله وجلست معه في غرفة المكتب كما يفعل الكثير من الناس يومياً، بل إن بعضهم يعترفون له بأخطائهم هناك، تلك الأخطاء التي لا تفوق الإثم الذي اقترفته، ولكنها خشيت من وقع الخبر عليه إذا ما أفشت السر في منزله، وكذلك خشيت أن يراهما روجر تشيلينغ ورث، أرادت أن تلتقيه في مكان لا يراهما فيه أحد، ولهذا لم تذهب إلى منزله.

وأخيراً سمعت أثناء حضورهما الصلاة ذات يوم أن الموقر ديمسديل قد يذهب في اليوم الفائت ليزور المبشر إيليوت وهو أحد رجال الدين الذين كرّسوا حياتهم للتبشير بالديانة المسيحية بين الهنود الحمر، وأنه سيعود في ساعة معينة من صباح اليوم التالي.

وفي اليوم التالي اصطحبت هيستر معها ابنتها بيرل التي كانت مرافقتها في كل جولاتها وحركاتها مهما كانت تلك الجولة غير مناسبة بالنسبة لها، وخرجت للقائه.

الطريق الذي قطعتاه عبارة عن ممر بين أدغال الغابة المجاورة، وأحياناً يضيق الممر وتتعانق قمم الأشجار على حافتيه لدرجة أنها تحجب أشعة الشمس عن المارة، شبهت هيستر هذا المنظر بنفسها...كيف كانت القيم الأخلاقية محتجبة في صدرها بغشاوة من الزيف والشهوة.

كان الجو بارداً وكئيباً بسبب تجمعات الغيوم الكثيفة في السماء، تخترق أشعة الشمس الفُرَج الموجودة بينها فتضيء أجزاء من الغابة وتحجب نورها عن أجزاء أخرى.

– أمي..قالت بيرل..يبدو أن الشمس لا تحبك لأنه كلما وصلنا إلى بقعة مضيئة احتجبت أشعة الشمس فيها لتعود لتظهر في مكان آخر، ربما كانت خائفة من شيء على صدرك، ففي هنا وسأذهب للإمساك بها هناك، إنها لن تخاف مني لأنني لا أحمل شيئاً على صدري..أنا مازلت طفلة.

قالت هيستر:

– آمل ألا تحملي شيئاً عليه يا بنتي.

- ولم لا يا أمي؟! توقفت الصغيرة قبل أن تركض،..ألا يظهر الحرف وحده عندما أكبر وأصبح مثلك؟

- هيا اركضي يا صغيرتي وأمسكي بأشعة الشمس قبل أن تهرب.

ركضتْ بيرل بأقصى سرعتها وابتسمت هيستر وهي تراها وقد أمسكت بأشعة الشمس ووقفت تضحك وسطها رافعة رأسها نحوها، ظلت الشمس تضيء تلك البقعة من الغابة إلى أن اقتربت هيستر من ابنتها.

- لا تقتربي أكثر..ستهرب الأشعة منك..صاحت بيرل.

ابتسمت الأم ورفعت يدها نحو شعاع الشمس وقالت:

- أرأيت..ها قد مددت يدي وأمسكت بها..

ثم أردفت بعد لحظات:

- تعالي يا بنتي نرتحْ قليلاً.

- أنا لست متعبة يا أمي، أجابت الصغيرة..ارتاحي أنت إن أردت وأخبريني قصة.

- قصة يا بنتي؟ قالت هيستر..حول ماذا؟

- أوه..قصة حول الرجل الأسود..أجابت بيرل، كيف يسكن هذه الغابة ويحمل كتاباً معه، كتاباً ضخماً ثقيلاً ومسامير حديدية، وكيف يقدم

كتاباته مع مسمار حديدي إلى كل شخص يلقاه هنا بين الأشجار ويطلب منه كتابة اسمه بدمه في الكتاب، ثم يرسم إشارته على صدره، ألم تلتق ذات مرة بالرجل الأسود يا أمي؟

- من أخبرك هذه القصة يا بيرل؟ قالت الأم وقد عرفت القصة التي كانت سائدة بين الناس في تلك الفترة.

- امرأة مسنة حيث ذهبنا الليلة الماضية..قالت الطفلة..قالت: إن آلاف الناس قد التقوا به هنا وكتبوا أسماءهم في كتابه ورسم إشارته على صدورهم، منهم مثلاً تلك المرأة القبيحة السيدة هيبينز، وقد قالت لي أيضاً يا أمي: إن هذا الحرف القرمزي هو إشارة من الرجل الأسود، وإنه يتوهج كلهب النار عندما تلتقي به في منتصف الليل هنا في الغابة المظلمة..أهذا صحيح يا أمي؟ هل تذهبين للقائه في الليل؟

- وهل سبق لك واستيقظت في الليل ولم تجديني قربك؟ سألت هيستر.

- لا..لا أذكر شيئاً من هذا القبيل..قالت الطفلة، إذا كنت تخافين أن تتركيني وحدي في كوخنا فيجب أن تأخذيني معك، يسعدني أن أذهب معك، ولكن أخبريني يا أمي أصحيح أنه يوجد رجل أسود؟ وهل قابلته ذات يوم؟ وهل الحرف القرمزي هو علامته التي رسمها عليك؟

- وهل ستكفين عن إزعاجي بأسئلتك إن أخبرتك؟ سألت الأم.

- نعم..إذا أخبرتني بكل شيء..أجابت بيرل.

- لقد قابلت الرجل الأسود مرة واحدة في حياتي، قالت الأم، وهذا الحرف القرمزي هو علامته.

تكلمتا وهما تتمشيان في الغابة، توغلتا فيها وابتعدتا عن الطريق الذي يسلكه الناس عادةً من أجل تجنب الالتقاء بأحد، جلستا على جذع شجرة ملقى على الأرض جانب غدير من الماء يجري بين الأشجار.

- أسمع خطوات في الطريق، وصوت أحدهم يبعد أغصان الأشجار عن طريقه..العبي هنا وسأذهب أنا للتحدث مع ذلك الرجل هناك.

- هل هو الرجل الأسود؟ سألت بيرل.

- اذهبي والعبي..كررت الأم، ولكن لا تبتعدي في الغابة لكي لا تضلي طريقك، واخرجي حالما أناديك..أفهمت؟

- نعم يا أمي..أجابت بيرل، إذا كان القادم هو الرجل الأسود هلا تركتني أبقى معك قليلاً وأنظر إليه؟

- اذهبي أيتها الفتاة الساذجة، هذا ليس الرجل الأسود ألا ترينه عبر الأشجار؟ إنه الموقر.

- نعم..قالت الطفلة، انظري يا أمي..إنه يضع يده على صدره، هل هذا لأنه عندما كتب الموقر اسمه في كتاب الرجل الأسود قام الأخير

برسم علامته على صدره؟ ولكن لماذا هي ليست موجودة على ملابسه مثلك؟

- اذهبي والعبي الآن كما قلت لك، وأجّلي مضايقتك لي إلى ما بعد، صاحت هيستر برين، ولكن لا تبتعدي..ابقي قريبة من غدير الماء.

ذهبت الطفلة وهي تدندن بأغنية وتتبع غدير الماء، وتنحني بين الحين والآخر لتقطف أزهار البنفسج وشقائق النعمان التي تنمو هنا وهناك على جانبيه.

وعندما ابتعدت الطفلة قليلاً تحركت هيستر بين الأشجار في محاذاة الطريق الذي يسلكه الموقر إلى أن لحقت به، كان يمشي متوكئاً على عصا قطعها من غصن في طريقه، بدا مهزول الجسم، خائر القوى، كئيب الملامح بشكل لافت للنظر وعلى غير عادته، كان يجر نفسه جرّاً وكأنه يتمنى في كل لحظة أن يموت في مكانه لتنتهي عذاباته، وكما لاحظت بيرل كان يمشي ويده على صدره جهة القلب.

****

الفصل السابع عشر

هيستر تكشف حقيقة روجر

لحقت به هيستر وصاحت:

– آرثر ديمسديل..

يبدو أنه لم يسمعها من المرة الأولى فكررت نداءها بصوت أعلى:

– آرثر ديمسديل..

– من هناك؟ أجاب الكاهن.

تمالك نفسه ووقف منتصباً مثل شخص أُخذ على حين غرة وهو في وضع كان فيه بعيداً عن أعين الناس وراح ينظر إلى الجهة التي صدر منها الصوت، رأى شخصاً يتحرك بين الأشجار يرتدي عباءة رمادية وقلنسوة، لم يدرك تحت أشعة الشمس الباهتة إذا ما كان رجلاً أم امرأة.

تقدم خطوة إلى الأمام ثم صاح:

– هيستر..أهذا أنت؟ هيستر برين..!

– هذه أنا بشحمها ولحمها، قالت هيستر وهي تتقدم منه.

كانت هذه أول مرة يلتقيان فيها بمفردهما بعد سبع سنوات، مدّ ديمسديل يده ولمس يدها الباردة كيده، ودون أن يتفوه أحدهما بكلمة واحدة توغلا داخل الغابة بعيداً عن الطريق، وجلسا على جذع الشجرة

نفسها التي كانت هيستر وبيرل جالستين عليها، وعندما تكلما بعد برهة سأل كل منهما الآخر عن أحواله كأي صديقين، وأبديا ملاحظاتهما عن الطقس وبرودته، ثم مرت لحظات طويلة من الصمت قطعها الكاهن وهو يثبت نظره على هيستر ويقول:

- هيستر..هل وجدت الراحة؟

ابتسمت ونظرت إلى الحرف على صدرها..

- وهل وجدتها أنت؟

- لا..لم أجد سوى اليأس، وماذا أتوقع وأنا على الحالة التي أنا عليها وأعيش الحياة التي أعيشها، لو كنت ملحداً أو مجرداً من القيم والمبادئ الأخلاقية لوجدت الراحة على الأقل في هذه الحياة الدنيا، ولكن بوجود كل القيم والمبادئ التي أؤمن بها، وبحكم كوني واعظاً للناس أشعر أنني أتعس رجل في العالم، لأن مبادئي تعذبني.

- الناس يبجلونك..قالت هيستر، ومن المؤكد أنك تبلي بلاءً حسناً بينهم، ألا يريحك هذا الشعور؟

- بل يزيد من تعاستي يا هيستر، لأنني أقول ما لا أفعل، كيف يمكن لروح محطمة مثل روحي أن تؤثر على أرواح غيري وتصلحها؟ أو أن تدعوها إلى النقاء والصفاء الروحي وهي ملوثة بالخطيئة؟ أنا أتعذب

كلما وقفت على المنبر واعظاً للناس ونظرت إلى وجوههم الشاخصة نحوي وكأني مثال يحتذى للطهارة والأخلاق، ليتهم يعرفون حقيقتي.

- أنت تقسو على نفسك..قالت هيستر، لقد تبت بسبب ندمك الشديد على ما فعلت، حياتك الحالية صافية من كل دنس كما هي في أعين الناس، أليست توبتك صادقة؟

- أشعر أنها ليست صادقة يا هيستر، إنها توبة باردة وميتة ولا فائدة منها، كان يجدر بي أن أخلع عباءتي الكهنوتية التي أتخفى فيها وأظهر نفسي للناس كما سيروني في يوم الحساب، دون خداع ودون نفاق، كم أحسدك يا هيستر لأنك وضعت الحرف القرمزي على صدرك أمام جميع الناس..أما أنا فقد وضعته في قلبي سراً..لقد ارتحت أنت بعد عذاب سبع سنوات على الأقل شعرت ببعض الراحة، أما أنا فمازلت كما كنت.

نظرت هيستر إلى وجهه وترددت في الكلام ولكنها استجمعت شجاعتها وتكلمت في النهاية.

- أنت صديقي وشريكي في الخطيئة، ويتحتم عليَّ أن أخبرك شيئاً..لديك عدو تعيش معه منذ مدة طويلة تحت سقف واحد.

انتفض الكاهن واقفاً وقال:

- ماذا تقولين؟! عدو..؟! ويعـيش معـي تحـت سـقف واحـد..! مـاذا تقصدين؟

صاحت:

- أوه..آرثر..سامحني لأنني أخفيـت عنـك هـذه الحقيقـة طـوال هـذه المدة، ذلك العجوز الذي يسكن معـك الـذي يـدعى روجـر تـشيلينغ ورث كان زوجي.

نظر الكاهن إليها ملياً فاغراً فاه مـن الدهـشة ثـم جلـس مكانـه ودفـن وجهه براحتي يديه..

- كان يجب أن أعرف هذا..قال أخيراً، كـان يجـب أن أشـعر بـه منـذ اللحظة الأولى التي رأيته فيها، لماذا لم تخبرينـي منـذ البدايـة..لـن أغفـر لك هذا.

أمسكت هيستر بيده بكل حنان وعطف ونظرت إلى عينيه ثم قالت:

- بل ستغفر لي.

تنهد الرجل أخيراً..

- غفرت لـك..وآمـل أن يغفـر الله لنـا خطايانـا فـنحن لـسنا أسـوأ الخاطئين في هذا العالم..ذلك العجوز برغبتـه الـشديدة فـي الانتقـام التـي

يخفيها طوال سبع سنوات أسوأ مني ومنك، لقد ادعى صداقتي، واقتحم حياتي، واطلع على أسراري ومكنونات قلبي، كل هذا من أجل الانتقام..نحن لم نفعل ذلك يا هيستر.

- نعم..لم نفعل ذلك..رددت هيستر.

جلسا صامتين ويداهما متشابكتان، ومرت لحظات والدقائق وتمنيا لو يظلان على هذه الحالة لفترة أطول وأطول.

صاح ديمسديل فجأة وقد خطر بباله خاطر:

- هيستر...يعرف روجر تشيلينغ ورث نيتك إفشاء سره لي..ماذا سيفعل الآن للانتقام مني؟ هل سيفضح أمري؟

- إنه كتوم بطبعه..أجابت هيستر، ولا أظنه سيفضح أمرنا على الملأ، بل سيحاول الانتقام بطريقة أخرى.

- وسأظل معه تحت سقف واحد..قال آرثر ديمسديل..! فكري معي يا هيستر ماذا أفعل؟

- يجب ألا تستمر بالعيش معه تحت سقف واحد..قالت هيستر..يجب أن تتحرر من تأثيره الشرير عليك.

- ولكن كيف أفعل هذا؟

- يمكنك ترك هذه المستوطنة والعودة إلى لندن والاستقرار في قرية بعيدة، أو الذهاب إلى إيطاليا أو فرنسا أو ألمانيا..لن يستطيع الوصول إليك.

- لا أستطيع الهرب..أنا أضعف من هذا..وحمل الخطيئة يرهقني، ثم إنني لا أستطيع ترك منصبي الكهني هنا.

- لقد حطمتك هذه السنوات السبع..قالت هيستر، لن ألحق بك..أؤكد لك هذا، تستطيع إذا قطعت البحر عائداً إلى لندن أن تبدأ حياتك من جديد، أتخشى من الإخفاق هناك؟ لا تخف..النجاح والسعادة ينتظرانك هناك، غيّر حياتك التي تعيشها هنا وستشعر بالسعادة، غيّر اسمك لكي تشعر بالأمان فهذا أفضل من أن تموت هنا ببطء وأن تظل تحت رحمته.

- آه يا هيستر..صاح آرثر ديمسديل وقد عاد الأمل إليه بفعل حماستها ثم سرعان ما خبا من جديد...أنت تطلبين من رجل مريض أن يجري في سباق، يجب أن أموت هنا..لا تتوافر لدي الشجاعة أو القوة لأغادر هذا المكان بمفردي.

كان ذلك تعبيراً واضحاً عن مقدار القنوط الذي يعتريه..

- لن تذهب بمفردك...همست هيستر.

****

الفصل الثامن عشر

هيستر تتخلص من الحرف القرمزي

حدّق آرثر ديمسديل بوجه هيستر بمزيج من السعادة والخوف، إنه لا يقوى على الهروب من هذا المكان، وقال لنفسه: أنا لم أذق طعم الراحة طوال هذه السنوات السبع الماضية، لماذا لا أعرف من الرجل الذي يحاول تحطيمي؟ لماذا لا أحاول أن أعيش في مكان آخر معها؟ لم أعد أطيق العيش بمفردي بعيداً عنها..كم هي لطيفة وجريئة..!

قالت هيستر بهدوء:

- ستذهب.

شعر بومضة سعادة في قلبه عندما فكّر مجدداً بالأمر وصاح:

- هل سأشعر بالسعادة مجدداً؟ هل سأعرف هذا الشعور الذي غاب عني طوال السنين السبع الماضية؟ أوه يا هيستر..أنت ملاكي.

- انتهى الماضي ويجب أن نحيا حياتنا من جديد..قالت هيستر بإصرار، أترى هذا الحرف؟ إنه يرمز للماضي وذكرياته الأليمة، سأتخلص منه.

ثم فتحت المشبك الذي يثبت الحرف القرمزي على صدرها وأمسكت به ورمته بعيداً عنها وأخذت نفساً عميقاً وأخرجت فيه عبء كل سنوات العار التي عرفتها...

شعرت أخيراً بالحرية وابتسمت لنفسها، وتخللت أشعة الشمس من بين أغصان الغابة الكثيفة لتسقط على شعرها وتجعله يلمع تحت أشعتها الذهبية، ثم هبت نسمة خفيفة حملت الحرف القرمزي الملقى على الأرض ورمته فوق سطح الغدير القريب الذي حمله بعيداً عنهما.

ابتسمت هيستر مجدداً وتحولت الغابة الكئيبة المظلمة إلى غابة السعادة بنظرها، نظرت إليه بسعادة وقالت:

- يجب أن تتعرف بيرل، ابنتنا، أنت تعرفها ولاشك ولكنك ستراها الآن بمنظار مختلف، وبعيون مختلفة، إنها طفلة غريبة لا أكاد أفهمها..أنا واثقة أنك ستحبها وسنتعاون سوياً في تربيتها.

- هل تظنين أن الطفلة ستحبني؟ الأطفال في العادة لا يألفونني، في الحقيقة أنا خائف من هذا.

- آه..لا تخف، أجابت الأم..أنا واثقة أنها ستحبك كثيراً وستبادلها أنت ذلك، إنها ليست بعيدة من هنا، سأناديها..بيرل...بيرل..

- ها هي الطفلة..قال الراهب ناظراً إلى حيث يشير، واقفة تحت شعاع الشمس، إنها بعيدة عنا على الجهة الأخرى من الغدير، إذاً أنت تعتقدين أن الطفلة ستحبني؟

ابتسمت هيستر ونادت بيرل مجدداً.

لم تشعر بيرل بالضجر بينما كانت تنتظر أمها ريثما تفرغ من حديثها مع رجل الدين فقد أشغلت نفسها بقطف ثمار التوت البري الذي ينمو في مثل هذا الوقت من السنة وأكله بسرور، إلا أنها لطخت يديها وفمها بلونه الأحمر، وباللعب مع السناجب المنتشرة في الغابة هنا وهناك، كما أنها كانت قد قطفت بعض أزهار البنفسج وشقائق النعمان وبعض الحشائش وصنعت منها تاجاً وزينت خصرها الصغير..وما أن سمعت نداء أمها حتى تركت اللعب وتقدمت ببطء نحوها.

****

الفصل التاسع عشر

هيستر وبيرل والكاهن

- أنا واثقة انك ستحبها، كررت هيستر بينما كانت هي والموقر يراقبان تقدمها نحوهما، ألا تراها جميلة؟ أرى أنها زينت نفسها بالأزهار..يالها من موهوبة.. إنها تشبهك إلى حد كبير.

قال ديمسديل:

- ولطالما شعرت بالأرق من جراء ذلك، اعتقدت أن الناس سيعرفونني عند التدقيق في سيمائها، ولكنني أشعر الآن أنها تشبهك أكثر مما تشبهني.

- لا..ليس كثيراً، أجابت الأم بابتسامة حنونة، كم تبدو جميلة بتلك الأزهار التي تزين شعرها، وكأنها إحدى الجنيات التي سمعنا عن جمالهن في إنكلترا.!

جلس الاثنان يراقبان الطفلة وشعور جديد يغمرهما لأول مرة، شعور لم يعرفاه من قبل، إنها تمثل بالنسبة إليهما الرابط الحي الذي يربطهما معاً.

همست هيستر:

- لا تشعرها بشيء خارج عن المألوف وأنت تخاطبها.

همس الكاهن وهو يلقي نظرة سريعة على هيستر:

- لا تتصوري كم أنا خائف من هذه المقابلة مع هذه الصغيرة ومتشوق إليها في الوقت نفسه، لأن الأطفال كما سبق وقلت لك يهابونني في العادة، ولا يحبون الاقتراب مني.

- لا تخف..قد تخاف في البداية وتخجل منك..ولكنها ستحبك في النهاية.

وفي هذا الوقت كانت بيرل قد وصلت إلى حافة الغدير ووقفت على ضفته الأخرى تحدق بصمت في هيستر والكاهن الجالسين معاً على جذع الشجرة..

- لديّ إحساس غريب أنها لن تعبر هذا الغدير الفاصل بيننا نهائياً، وكأنه الحد الفاصل بيننا...قال الموقر، أرجوك اطلبي منها الاقتراب قبل أن أفقد أعصابي.

- تعالي يا طفلتي...قالت هيستر مادة كلتا ذراعيها نحوها..لماذا أنت بطيئة هكذا..! هذا أحد أصدقائي وسيصبح صديقك أيضاً، سيحبك كما أحبك، تعالي..اقفزي فوق الغدير وتقدمي.

ولكن بيرل بقيت في مكانها تجول بناظريها بين أمها والكاهن محاولة فهم العلاقة بينهما، مدت ذراعها الصغيرة مشيرة بإصبعها إلى صدر أمها.

- لماذا لا تقتربين منا؟ أنت غريبة جداً اليوم..قالت الأم.

تقدمت الطفلة من أمها وعبرت الغدير الفاصل بينهما وهي مازالت تشير إلى صدر أمها بإصبعها.

- أسرعي يا بيرل وإلا غضبت منك..صاحت هيستر.

ولكن الطفلة وقفت داخل غدير الماء ولم تبرح مكانها وظلت تشير إلى صدر أمها.

همست هيستر في أذن الموقر:

- فهمت ماذا أصابها..الأطفال لا يرتاحون إلى رؤية أي تغيير يطرأ لوالديهم، بيرل فقدت شيئاً اعتادت عينها على رؤيته فيّ.

- أرجوك..افعلي شيئاً لتهدئة الطفلة..قال الكاهن.

- بيرل..قالت هيستر..انظري إلى موطئ قدميك، هناك أمامك على الجانب الآخر من الغدير.

استدارت الطفلة نحو المكان الذي أشارت إليه والدتها فوقع نظرها على رقعة القماش التي خاطت عليها أمها الحرف القرمزي المطرز والتي رمتها قبل قليل في الماء، كان الماء قد حملها إلى مسافة ليست بعيدة لتعلق بين أحجار يمر فوقها.

- أحضريها إلى هنا...قالت هيستر.

- بل اذهبي أنت وخذيها..أجابت بيرل.

- يالها من طفلة..! قالت هيستر للكاهن، إنها متعلقة بقطعة القماش تلك، يجب أن أتحملها قليلاً لبضعة أيام أخرى إلى أن نغادر هذا المكان إلى الأرض التي حلمنا بها، وعندها سأرمي قطعة القماش هذه في البحر إلى الأبد.

وهكذا تقدمت نحو حافة غدير الماء والتقطت الحرف القرمزي وثبتته مجدداً على صدرها، ثم عادت إلى طفلتها ومدت يدها نحوها قائلة:

- هل عرفت أمك الآن؟ هيا تعالي.

- نعم..الآن عرفتها، أجابت الطفلة، ثم رمت نفسها بين ذراعي أمها..أنت الآن أمي.

ثم جذبت ذراع أمها نحوها، انحنت الأم على ابنتها وما كان منها إلا أن طبعت بيرل قبلة على خدها بحب شديد ثم أتبعتها بأن قبّلت الحرف القرمزي على صدر أمها.

- لا..يجب ألا تفعلي هذا..قالت الأم.

- لماذا يجلس الكاهن جوارك يا أمي؟ سألت بيرل.

- إنه يريد إلقاء التحية عليك..تعالي وألقي التحية عليه..تعالي إنه يحبك جداً يا بيرل ويحب أمك أيضاً..ألا تحبينه؟ تعالي إنه توّاق للسلام عليك.

– هل هو يحبنا؟ قالت بيرل ناظرة بذكاء إلى أمها..هل سنعود نحن الثلاثة معاً يداً بيد إلى البلدة؟

– ليس الآن يا حبيبتي، أجابت هيستر..ولكن سنمشي معاً نحن الثلاثة فيما بعد، سنعيش معاً في منزل جميل، فيه مدفأة جدارية جميلة، وستجلسين على ركبته ويعلمك أشياء كثيرة، إنه يحبك، ألا تحبينه أنت؟

– وهل سيظل يضع يده فوق صدره؟ سألت بيرل.

– طفلة غبية..ما هذا السؤال! تعالي واطلبي بركاته.

إلا أن بيرل لم تستلطف الكاهن ولم تقترب منه إلا غصباً مما آلم الكاهن الذي طبع قبلة على جبينها في محاولة منه لتلطيف الأجواء بينهما، فما كان منها الآن أفلتت من يد أمها وأسرعت نحو غدير الماء ثم غسلت موضع القبلة، وعندما تأكدت أن مكانها قد غُسل تماماً وقفت بعيداً عن أمها والكاهن وراحت تراقبهما من مكانها وهما يتكلمان معاً ويخططان للخطوة التالية.

وبعد أن انتهت هذه المقابلة المصيرية بينهما انسحب الثلاثة عائدين إلى القرية تاركين أشجار الغابة لتتهامس فيما بينها ناقلة أسرار اللقاء إلى بعضها.

****

الفصل العشرون

الساحرة والكاهن

انصرف الكاهن أولاً قبل هيستر وبيرل بعد أن ألقى نظرة وداع أخيرة عليهما، ثم مضى في طريقه وهو يعيد في ذهنه الخطة التي اتفق مع هيستر على تنفيذها من أجل رحيلهم من البلدة، قررا أن يعودا إلى عالمهما الذي هاجرا منه، فزحامه ومدنه سيقدم لهما مأوى آمناً أفضل من أدغال نيو إنجلند أو كل أمريكا بمستعمراتها المتناثرة هنا وهناك والتي أقامها الأوربيون على طول الشاطئ.

كما أن صحة الكاهن وثقافته لا يؤهلانه للسكن في الأدغال وتحمل صعوبات العيش فيها، إنه بحاجة إلى مجتمع متمدن ليعيش فيه، ولحسن حظهما كان في الميناء القريب سفينة من السفن التي تصل كل فترة جاءت قادمة من إسبانيا وستبحر بعد ثلاثة أيام متجهة إلى بريستول، اتفقا أن تبدي هيستر لربانها رغبتها في الإبحار معه بوصفها راهبة تقوم بالعمل التطوعي الخيري، وإنه سيرافقها شخص آخر وطفلة.

مضى السيد ديمسديل في طريقه بخفة ونشاط بعد مقابلته مع هيستر لدرجة أنه لم يشعر بوعورته، واندهش حينما تذكر التعب الذي أصابه في رحلة الذهاب لزيارة صديقه المبشر الذي يقيم مع الهنود كم مرة اضطر للتوقف في الطريق لأخذ قسط من الراحة ولالتقاط أنفاسه.

وعندما أصبح قريباً من البلدة شعر أنه يراها بشكل مختلف عما رآها فيها قبل مغادرته إياها، مع أنه غادرها قبل يومين فقط إلا أنه يشعر كأنه غادرها منذ سنوات طويلة.

التقى في طريقه بالسيدة هيبينز الساحرة العجوز التي ابتسمت له بخبث واستوقفته رغم أنها نادراً ما تفعل ذلك.

- أيها المحترم..سمعت أنك زرت الغابة..قالت الساحرة، أرجو أن تخبرني في المرة القادمة لأرافقك إلى هناك، فأنا أفضل من الذي قابلته فيها..ثم ابتسمت بخبث.

ارتبك الكاهن وقال:

- لم أفهم مغزى تلميحاتك أيتها السيدة، لم أذهب إلى الغابة لرؤية أحد كما تدعين، لقد ذهبت لزيارة صديقي الفاضل السيد إيليوت للاطلاع على أحواله لتعرُّف عدد الأرواح التي هداها..

- هاهاها..قالت العجوز مطلقة ضحكة عالية..يجب ألا نتكلم هذا الأمر في وضح النهار..الأفضّل أن نؤجله إلى الليل في الغابة..سنتكلم سوياً كما يحلو لنا.

ثم ضحكت وتابعت طريقها، وما إن ابتعدت قليلاً عنه حتى استدارت ونظرت إليه مبتسمة، وغمزت بعينها وكأنها تعرف سره الذي تركه في الغابة.

مسكين هذا الكاهن البائس..عاد مجدداً لشعوره بالذنب..أغواه الحلم بالسعادة التي لم يعرفها منذ مدة طويلة، إذا به يشعر بالذنب وبأنه اقترف خطأ جديداً يضاف إلى ذنبه السابق، أيقظت مقابلته مع السيدة هيبينز إحساسه بالذنب.

كان قد وصل إلى مسكنه على أطراف مقبرة البلدة وأسرع بصعود الدرج إلى غرفته، شعر بالراحة أخيراً عندما أغلق الباب على نفسه وأخذ يجول بناظريه في أرجائها وكأنه يلقي التحية على كتبه ونوافذ غرفته ومدفأته، هنا درس في كتبه، وقرأ الإنجيل، وكتب خطبه ومواعظه.

وبينما هو سارح في أفكاره سمع نقراً على الباب، قال الكاهن:

- ادخل..

دخل روجر تشيلينغ ورث العجوز، وقف الكاهن وقد اصفر لونه وتذكر ما قالته له هيستر حول الشر الذي يضمره له هذا العجوز.

- أهلاً بك في منزلك يا سيدي الموقر..قال الطبيب...كيف وجدت ذلك الرجل التقي السيد إيليوت، أراك شاحب الوجه يا سيدي، لابد أن السفر في الغابة قد أنهك صحتك، هل تحتاج إلى مساعدتي في شيء؟لا تنسَ أن هناك موعظة يجب عليك تحضيرها قريباً.

- لا..لا داعي لذلك، قال الموقر السيد ديمسديل، لقد أفادتني رؤية صديقي السيد إيليوت، واستنشاق هواء الغابة العليل بعد أن حبست نفسي في غرفتي لفترة طويلة، لا أرى حاجة بعد اليوم لأدويتك يا صديقي الطبيب.

كان روجر ينظر إلى الكاهن بعيون الطبيب الفاحص، ولكن بالرغم من هذا كان الكاهن يشعر من خلال نظرات الطبيب إليه أنه يعلم بأمر مقابلة هيستر له، ولن يمضي وقت طويل حتى يصارح أحدهما الآخر بهذه الأمور رغم أنها يتجنبان الخوض فيها حالياً، ومع ذلك تجرأ وقال:

- أليس من الأفضل لك يا سيدي العزيز أن تستعمل دوائي الليلة؟ يجب أن تكون بكامل قوتك وحيويتك من أجل الموعظة التي ستلقيها بمناسبة انتخاب الحاكم الجديد، فالناس كعادتهم يتطلعون منك إلى خطبة رنانة.

- لا..لا حاجة لدوائك يا سيدي في الوقت الحالي، قال بتقى واضح.

- يسعدني سماع هذا..فمعناه أنك استفدت من أدويتي.

- أشكرك من أعماق قلبي أيها الطبيب الحاذق..قال الموقر ديمسديل بابتسامة وقورة، ولا يسعني إلا أن أشكرك بصلواتي.

- صلوات رجل صالح مثلك مكافأة من ذهب..قال روجر تشيلينغ ورث العجوز بينما هو يخرج من الغرفة.

وعندما خرج الطبيب استدعى الموقر الخادم وطلب إعداد طعام له تناوله بشهية مفتوحة ثم رمى بالعظة التي كان قد بدأ في كتابتها قبل سفره في الموقد الجداري وبدأ يكتب موعظة أخرى جديدة، تدفقت الأفكار على رأسه بسرعة وسلاسة لدرجة أنه ظنّ أنها إلهام رباني، وظلّ يكتب موعظته طوال الليل حتى بزوغ فجر يوم جديد.

****

الفصل الحادي والعشرون

يوم العطلة

وفي اليوم المقرر لتولي الحاكم الجديد مقاليد منصبه أمام الناس دخلت هيستر وابنتها إلى سوق البلدة الذي يعج بالباعة والمشترين من سكانها بالإضافة إلى المتسوقين من المستعمرات المجاورة.

وفي يوم العطلة العامة هذا كشأن المناسبات الأخرى التي مرت على هيستر خلال السنوات السبع الماضية ارتدت ملابس رمادية اللون، خشنة الملمس من أجل عدم إثارة انتباه الناس إليها، وثبتت الحرف القرمزي على صدرها كالعادة، إلا أن هذه المرة كانت مختلفة تماماً بالنسبة إليها فقد تصنعت الكآبة والحزن على وجهها وقالت لنفسها وهي تنظر إلى الناس في السوق:

"انظروا إليَّ لآخر مرة..فسأغادركم إلى الأبد وسأرمي الحرف القرمزي في البحر"

أما بيرل فقد كانت سعيدة وهي تمشي في السوق مرتدية الثوب الجميل الذي خاطته لها أمها، سألت:

- ما هذا يا أمي؟ لماذا ترك الناس أعمالهم اليوم وتجمعوا هنا؟ هل هو يوم لعب للجميع..؟ هاهو الحداد أراه نظيفاً اليوم مرتدياً ملابسه

النظيفة التي يرتديها عندما يذهب إلى الكنيسة..يبدو سعيداً..وهاهو السجّان العجوز براكت يبتسم لي، لماذا يفعل هذا يا أمي؟

- لأنه تذكرك عندما كنت طفلة يا صغيرتي..أجابت هيستر.

- يجب ألا يبتسم لي من أجل هذا، يجدر به أن يحييك ويبتسم لك إذا أراد، أترين يا أمي ما أكثر الغرباء اليوم والهنود والبحارة؟ ما الذي جاؤوا ليفعلوه اليوم في السوق؟

- يريدون أن يروا موكب الحاكم والقضاة والكهنة، ويسمعوا عزف الآلات الموسيقية التي ستواكبهم، كما أن الجنود سيحفون بهم من الجهتين، سيكون مشهداً جميلاً.

- وهل سيأتي الكاهن أيضاً ويمسك يدي ويدك كما وعدني عندما كنا في الغابة في ذلك اليوم؟

- سيكون هنا يا صغيرتي أجابت الأم، ولكنه لن يحييك اليوم ويجب عليك أنت أيضاً ألا تحييه.

- ياله من رجل غريب الأطوار! قالت الطفلة وكأنها تتكلم مع نفسها، لقد ناداني عندما كنا في الغابة وأمسك يدي ويدك تماماً، كما أمسك بيدينا عندما وقفنا على منصة الإعدام قبل مدة، وتكلم معك في الغابة حيث لا أحد يسمعه سوى الأشجار المحيطة بنا، وجلستما على جذع الشجرة الملقى على الأرض، وقبّل جبهتي، واستطعت بصعوبة غسل موضع

القبلة بماء الغدير، وهاهو اليوم في هذا النهار المشمس وأمام أنظار الناس يتظاهر أنه لا يعرفنا ويجب علينا نحن أيضاً أن نتظاهر أننا لا نعرفه..كم هو رجل حزين وغريب الأطوار، يضع يده دوماً على صدره فوق القلب..!

- اسكتي يا بيرل، أنت لا تفهمين هذه الأشياء..قالت أمها..لا تفكري الآن بالكاهن ولكن انظري إليه وانظري كم الناس سعداء اليوم، الأطفال خرجوا من مدارسهم، والكبار من متاجرهم وحقولهم لكي يكونوا سعداء لأنه سيحكمهم رجل جديد هذا اليوم.

تختلف مشارب الناس في السوق بشكل يدعو للدهشة، فتجد المهاجرين الجدد القادمين من أنكلترا من الرجال والنساء يرتدون الأزياء التي اعتادوا ارتداءها هناك، وتجد إلى جانبهم سكان البلاد الأصليين المغلوب على أمرهم الهنود الحمر قد وقفوا بزيهم الغريب، بتيجان الريش التي تزين رؤوسهم وقد ارتدوا السراويل المصنوعة من جلد الغزال، وتسلحوا بأقواسهم وسهامهم، وهم يراقبون المنظر بنظرات متجهمة ومن زوايا بعيدة عن الناس، ويختلط هؤلاء مع بعض البحارة الذين نزلوا من سفينتهم الإسبانية الراسية في الميناء القريب وجاؤوا إلى السوق بقصد الفرجة والتسلية، وربما لشراء الفواكه والثمار واللحوم التي يزخر بها السوق، يعرفهم المرء من خلال قساوة ملامحهم، ومن وجوههم التي لفحتها أشعة الشمس، ومن لحاهم وسراويلهم العريضة،

والأحزمة الجلدية العريضة المشدودة على خصورهم وقد ثبتت عليها قطعة سلاح من مسدس أو خنجر أو سيف، وقد تجد بعضهم يدخن الغليون أو يشرب الخمر من قوارير يحملونها بأيديهم، وينظر كبار البيوريتانيين بملابسهم السوداء وقبعاتهم الدائرية إلى هذه الحشود بمزيج من عدم الرضا والترقب، إلا أنهم لم يندهشوا عندما رأوا الطبيب الوقور ذا الشهرة الواسعة بينهم روجر تشيلينغ ورث يدخل السوق وهو يتحدث بود وحميمية مع ربان السفينة الإسبانية.

بعد أن انتهى من حديثه مع الطبيب تجول ربان السفينة في السوق إلى أن وصل إلى المكان الذي تقف هيستر وابنتها فيه، عرفها ولم يتردد بمخاطبتها.

– بات يتحتم عليَّ حجز مكان آخر على السفينة أيتها السيدة، لن نخاف من الأمراض في هذه الرحلة مع وجود طبيب السفينة وهذا الطبيب الآخر معنا.

– ماذا تعني؟! سألت هيستر باستغراب..هل انضم مسافر جديد؟

– ماذا؟ ألا تعرفين؟ صاح الربان..إنه ذلك الطبيب الذي يعيش معكم هنا، تشيلينغ ورث، يجب أن تعرفي هذا فقد قال لي: إنه يعرفك وهو صديق حميم للرجل الذي حدثتني عنه، ذلك الرجل الذي يرتدي ملابس الكهنة البيوريتان.

قالت هيستر محاولة أن تبدو هادئة ما استطاعت:

- نعم..إنهما يعرفان بعضهما جيداً، فقد عاشا معاً مدّة طويلة.

لم يتكلما لأكثر من هذا، إلا أنها لمحت روجر تشيلينغ ورث واقفاً في زاوية قصية من السوق يبتسم لها ابتسامة تحمل الكثير من المعاني المخيفة والسرية.

****

الفصل الثاني والعشرون

الموكب

قبل أن تستجمع هيستر برين أفكارها وتقرر ما يتوجب عليها فعله بعد المعلومات الجديدة التي عرفتها سمعت صوت الفرقة العسكرية الموسيقية وهي تقترب عبر الشارع، إنها تشير إلى بداية تحرك موكب رجال الدين والقضاة في طريقهم نحو مكان الاجتماع حيث سيلقي الموقر السيد ديمسديل عظته المنتظرة حسب العادة في تلك الفترة.

تقدم رئيس الموكب بخطا بطيئة ثابتة داخلاً السوق، تتبعه الفرقة الموسيقية بآلاتها المختلفة تعزف لحناً غير متناغم، صفقت بيرل لدى بداية العرض الذي تراه لأول مرة في حياتها وأُخذت بمنظر الآلات الموسيقية وثياب العازفين المزركشة والملونة، وبمنظر سيوفهم على خصورهم التي تلمع تحت أشعة الشمس، ثم تقدم خلفهم كوكبة من الجنود وهم مجموعة من المتطوعين أوكل الناس إليهم مهمة الدفاع عن المستوطنة البيوريتانية عند اللزوم، ثم تقدم من خلفهم رجال الدين والقضاة بملابسهم السوداء الوقورة ومن بينهم آرثر ديمسديل.

أخذت هيستر تختلس النظر إليه وتتذكر اللحظات السعيدة التي قضتها معه في الغابة، هل هو الرجل نفسه الذي تراه الآن؟! إنها لا تكاد تعرفه وهو يتقدم بوقار مع باقي الكهنة تحت إيقاع الطبول.

ويبدو أن بيرل شعرت أيضاً بما شعرت بـه أمهـا فـسألتها عنـدما مـرّ الكاهن من أمامهما:

- أمي..هل كان ذاك هو الكاهن نفسه الذي قبلني في الغابة؟

- اصمتي يا بيرل، همست أمها..يجب ألا نـتكلم فـي الـسوق حـول مـا جرى في الغابة.

- أنا لست متأكدة أنه هو، يبـدو لـي غريبـاً للغايـة، تـرى مـا الـذي سيفعله إن جريت نحوه وطلبت منه أن يقبلنـي الآن أمـام كـل النـاس كمـا قبلني في الغابة؟ وهل سيضع يـده فـوق صـدره كمـا يفعـل فـي العـادة ويوبخني ويطلب مني الابتعاد عنه؟

- وماذا سيقول لك يا بيرل..أجابـت هيـستر سـوى أنـه لـيس الوقـت المناسب الآن، وأنه يجب ألا يقبلك في السوق لأنـه لـيس المكـان المناسـب لذلك.

حدث شيء آخر يتعلق بالسيد ديمـسديل فـي الـسوق قـام بـه شـخص غريب الأطوار قاد إلى حديث مع حاملـة الحـرف القرمـزي التـي يتجنـب الناس في العادة التكلم معهـا..إنهـا الـسيد هيبينـز التـي تقـدمت الجمـوع بثوبها المزكرش القرمزي اللون لمشاهدة الموكب، وباعتبارهـا تـشتهر فـي أرجاء البلدة بأنها المسؤولة الرئيـسية عـن كـل أعمـال الـسحر وتحـضير الأرواح الأمر الذي كاد يكلفهـا حياتهـا، فقـد أفـسح النـاس لهـا الطريـق

مخافة أن يلامس رداؤها أجسامهم كأنه يحمل السم لهم، وهكذا أضحت هيستر والسيدة هيبينز واقفتين بمفردهما بعيداً عن أسماع الناس، همست الأخيرة في أذنها:

– ما رأيك برجلك المقدس، ذلك القديس الذي يمشي على الأرض كما يطلق عليه الناس هنا، وكما يوحي مظهره، من يراه وهو يمشي بوقار ورزانة بين سائر رجال الدين والقضاة لا يصدق أنه كان قبل أيام قليلة في الغابة يتنشق الهواء العليل؟! آه..كلانا يعرف ماذا يعني هذا يا هيستر برين، لا أكاد أصدق أنه الرجل نفسه..أصدقيني القول يا هيستر..أليس هو الرجل ذاته الذي كنت معه في الغابة؟

– لا أدري عم تتكلمين أيتها السيدة، أجابت هيستر وقد استغربت من مقدار الثقة التي تتكلم بها السيدة هيبينز، وفي الوقت نفسه انزعجت من وقوفها معها في السوق أمام الناس، أنا لا أتكلم بهذه الطريقة عن شخص ورع مثل الموقر السيد ديمسديل..

– تباً لك أيتها المرأة..صاحت الساحرة العجوز هازةً سبابتها في وجه هيستر، ألا تدرين أنني أكثر من التردد على الغابة وأستطيع معرفة من دخل إليها، لقد رأيتك يا هيستر، لمع حرفك القرمزي تحت أشعة الشمس عندما كنت هناك وعرفتك على الفور، ودعيني أخبرك شيئاً، عندما يرى الرجل الأسود أحد خدمه خجلاً من الاعتراف بالرابطة التي تربطه به مثل السيد ديمسديل فإنه يستخدم أساليبه في جعل الأمر

مفضوحاً على الملأ أمام كل العالم، ما الذي يحاول الكاهن إخفاءه عندما يضع يده طوال الوقت على قلبه؟ يا هيستر برين؟

- وماذا في هذا أيتها السيدة هيبينز..؟ سألت بيرل..هل رأيت ما يخفيه؟

- لا يا عزيزتي..أجابت السيدة هيبينز..ولكن سترين هذا يوماً ما بنفسك، وعندما تعلمين من هو والدك.

ثم أطلقت ضحكة مدوية سمعها كل من كان في السوق وابتعدت.

وهنا بدأت الصلوات التمهيدية في قاعة الاجتماع وسُمع صوت الموقر ديمسديل، انتاب هيستر شعور غامر بضرورة بقائها في مكانها وخصوصاً أن بمقدورها سماع العظة من حيث وقفت إلى جانب منصة الإعدام.

أصغت هيستر إلى العظة بصوت الموقر ديمسديل الغني بالعاطفة الدينية والمعبر، وفي هذه الأثناء كانت بيرل تجري هنا وهناك تضحك وتلعب في أرجاء السوق، تقف تارة أمام أحد الهنود الحمر وتداعبهم مقلدة إياهم، أو تهرول بين البحارة الموجودين في السوق فلا يملكون إلا أن يداعبوها ويضحكوا.

سألها أحدهم عندما اقتربت منه:

- هل أمك هي تلك المرأة ذات الحرف القرمزي؟

- نعم..إنها هي..أجابت الطفلة وقد أدارت وجهها نحوها.

- أخبريها هذه الرسالة إذاً..قال البحار، لقد تكلمت مع الطبيب العجوز مجدداً وقال لي: إنه سيتكفل بإحضار صديقه الكاهن معه إلى السفينة، أخبريها أن تأتيا أنتما الاثنتان في الوقت المحدد.

- حسناً قالت الطفلة ثم أسرعت عائدة إلى أمها وهي تشق طريقها بين جموع الناس.

سمعت هيستر بهدوء رسالة البحار وحاولت أن تبقى على هدوئها رغم صعوبة الموقف، فلابد أن العديد من الأشخاص الذين تصادف وجودهم بجانب البحار قد سمعوا كلامه مع ابنتها وعلموا بالأمر.

****

الفصل الثالث والعشرون

اعتراف الكاهن بالخطيئة

انتهت العظة وبدأ الناس يخرجون من القاعة وهم يطرون فيما بينهم على العظة الرائعة التي لامست شغاف قلوبهم والتي لم يسمعوا بها من قبل، ولكن حزنهم كان عظيماً لأن الموقر الذي أحبوه وتأثروا بكلامه مصمم على مفارقتهم إلى الأبد.

صدحت الموسيقا مجدداً وتقدم الموكب باتجاه قاعة مقر الحاكم حيث ستقام مأدبة حافلة لإنهاء مراسم الاحتفال.

ومجدداً شاهد جموع الناس رجال الدين وهم يتقدمون الموكب بوقار، وسرعان ما أفسحوا لهم الطريق ووقفوا على جانبيه، ثم تقدم القضاة والحاكم خلف الكهنة ومعهم الموقر الذي بدا شاحب الوجه.

وعندما أصبح قريباً من مكان وقوف هيستر وابنتها حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد توقف السيد ديمسديل ونظر إليهما مادّاً ذراعيه قائلاً:

- هيستر برين...تعالي أيتها الجوهرة.

شهق الجميع وتجمدوا في أرضهم، أسرعت الطفلة كالفراشة نحوه وأمسكت بركبته بكلتا يديها، وتقدمت هيستر منه بخطوات بطيئة ثم توقفت قبل أن تصل إليه، وفي هذه اللحظة اندفع روجر تشيلينغ ورث العجوز عبر الحشود وأمسك بذراع الموقر وهمس في أذنه:

- توقف أيها المجنون، مــاذا ســتفعل؟ ابعــد عنــك تلــك المــرأة وهــذه الطفلة، ولا تشوه سمعتك..هل تريد جلب العار إلى مهنتك؟

- جئت متأخراً جداً..سأفشل كل مخططاتــك..قــال المــوقر بقــوة نــاظراً إلى عيني الطبيب...لم يعد لك تأثير عليَّ.

ثم مدّ يده مجدداً نحو المرأة ذات الحرف القرمزي وصاح:

- هيستر برين..أناديك باسمه الرحيم الــذي تفــضل علــيَّ فــي اللحظــة الأخيرة بمنحي القدرة على الاعتراف بالخطيئة التــي أثقلــت كــاهلي طــوال هذه السنين، تعالي وقفي بجانبي وليكن ما يكون..!

ذُهل الناس بهذا المشهد، وساد اضــطراب وهمهمــة فيمــا بيــنهم، وكــان أكثر المتفاجئين رجال الدين والقضاة ولــم يــصدقوا مــا ســمعوا ومــا رأوا، ولم يدروا ما يفعلون فتسمروا في أمــاكنهم، رأوا المــوقر وهــو يتقــدم مــن هيستر ويضع يده على خصرها ثم يتقدمان معاً نحــو منــصة الإعــدام التــي شهدت قبل سبع سنوات مراسم التــشهير بهيــستر، ثــم يــصعدان درجاتهــا معاً وقد أمسك بيد بيرل بيده الأخرى.

لحق بهم روجر تــشيلينغ ورث العجــوز وقــد شــعر أن الأمــر يعنيــه، وقف أسفل درجات المنصة قائلاً:

- لم تكن لتــستطيع الهــرب منــي مهمــا فعلــت لــو لــم تــصعد هــذه الدرجات.

- أشكر الله أن هدانا لهذا..أجاب الكاهن.

التفت نحو هيستر وهو يرتجف وقال بابتسامة باهتة تعلو وجهه:

- أليس هذا أفضل من الذي حلمنا به في الغابة؟

- لا أدري..أجابت هيستر..لا أدري..أفضل..ربما..قد نموت نحن الثلاثة الآن.

- لا...سيرحمكما الله أنت وأبنتك، فهو رحيم بالعباد، أما بالنسبة لي فأنا رجل أحتضر وأعتبر نفسي ميتاً..دعيني أفعل ما أراده الله لي أن أفعله، دعيني أتطهر من العار الذي لحق بي.

استدار الموقر ديمسديل وهو يمسك بيد هيستر وبيرل نحو إخوانه في الكهنوت والقضاة وإلى الحاكم والجموع المحتشدة المذهولة بما ترى وصاح بهم:

يا أهالي نيو إنجلند الذين أحبوني والذين وقّروني واعتبروني مقدساً، انظروا إليَّ وأنا واقف هنا، أنا الذي اقترفت إثماً عظيماً..أقف هنا أخيراً في المكان الذي كان من الواجب أن أقف فيه قبل سبع سنوات مع هذه المرأة، المرأة التي عانت كثيراً من جراء ارتدائها للحرف القرمزي على صدرها، عانت من نظراتكم وكلماتكم المجحفة بحقها، ومن ازدرائكم لها، وعيشها وحيدة منبوذة مع ابنتها، لقد تطهرت من الخطيئة التي شابت قلبها وجاء دوري الآن لأتطهر منها...انظروا لهذا..

ثم بحركة مفاجئة منه انتزع رقعة الحرف القرمزي المثبتة على صدر هيستر وترنح قليلاً وكاد يسقط على الأرض من فرط الوهن الذي أصابه لولا أن مدت هيستر ذراعها لتساعده على الثبات، إلا أن هذا لم يجد نفعاً فسرعان ما وقع إلى أرض المنصة حاملاً الرقعة القرمزية بيده وابتسامة رضا باهتة على وجهه، جثت هيستر على الأرض وأمسكت برأسه وقربته بحنان إلى صدرها، اقترب روجر تشيلينغ ورث منه وقال:

- لقد أفلت مني..لقد أفلت مني.

قال الموقر:

- فليغفر لك الرب..أنت آثم أيضاً.

ثم نقل بصره من الطبيب العجوز إلى المرأة وابنتها..

قال بصوت واهن:

- بيرل الصغيرة...هل تقبليني الآن..لقد رفضت تقبيلي في الغابة، هلا قبلتني الآن؟

انحنت بيرل وقبلته وانهمرت الدموع من عيني أمها ثم قال أخيراً:

- وداعاً يا هيستر.

همست هيستر وقد قربت وجهها منه:

- ألن نلتقي مجدداً؟ ألن نلتقي في حياتنا الأبدية؟ بالتأكيد سنلتقي لأننا دفعنا الدَين الذي علينا.

- بالتأكيد دفعنا الدين الذي علينا، أنت دفعته بحملك شعار الخزي والعار لسبع سنوات طويلة على صدرك، وأنا دفعته بعذاب الضمير الذي كابدته طوال هذه الفترة، وبزوجك الذي أرسله الله إليَّ ليعذبني باستمرار بسمومه التي كان يسقيني إياها، ثم بمنحي الجرأة لأن أواجه هؤلاء الناس وأعترف بخطيئتي وأموت أمامهم...بالتأكيد سنلتقي مجدداً لأن الله رحيم...وداعاً.

تلك كانت آخر كلمة تلفظ بها الموقر، وخيّم الصمت على المكان بعد ذلك دقائق عدة قبل أن تبدده تأوهات الناس وهمهماتهم.

****

الفصل الرابع والعشرون

الخاتمة

عندما عاد الناس إلى رشدهم بعد أيام عدة من هذه الحادثة راحوا يروون ما حصل على المنصة بأوجه عدة..شهد كثير منهم أنهم رأوا الحرف القرمزي مرسوماً على صدر الموقر التعيس باللحم، وفي تفسيرهم لهذه الظاهرة الغريبة قال بعضهم: إنها بسبب تأنيب ضميره المتواصل، وقال آخرون: إنها بسبب تعذيبه لنفسه سراً وبشكل يومي، بينما عزا آخرون ذلك إلى سحر خاص كان يمارسه الطبيب عليه باستعمال معرفته بالأعشاب الطبية، وبفنون سحر الهنود الحمر الذين خالطهم مدة طويلة من الزمن.

ومن جهة أخرى أنكر آخرون رأوا ما حصل في السوق من بدايته إلى نهايته أنهم رأوا مثل هذه العلامة على صدره، بل وصلوا إلى أبعد من ذلك فقد أنكروا وجود أي علاقة تربطه بهيستر وابنتها، وأن هذا الرجل الذي يرقى إلى مصاف القديسين قد اختار أن يموت بين يدي هيستر كتعبير أخير منه على تطهير قلبها من الإثم الذي لحق بها، ولكي يوصل رسالة إلى محبيه في أهمية التوبة، وهذه الرواية تبناها كل أصدقائه من رجال الدين والقضاة، بل حتى الحاكم نفسه.

التغير الذي طرأ على روجر تشيلينغ ورث بعد موت السيد ديمسديل كان ملحوظاً للغاية، فقد هجرته قوته وحيويته التي اشتهر بها رغم تقدمه

في السن لأنه جعل هدف حياته ووجوده في تلك البلدة البيوريتانية هي الانتقام ببطء من مغوي زوجته الشابة، وعندما مات لم يعد لديه ما يحيا من أجله، ولهذا خارت قواه ومرض ثم مات بعد سنة واحدة من موت السيد ديمسديل، وأوصى قبل أن يموت بكامل ثروته وأملاكه في أنكلترا إلى بيرل.

وهكذا أصبحت بيرل الصغيرة أصغر وريثة في نيو إنجلند، واختفت هيستر وابنتها بعد موت روجر تشيلينغ ورث بوقت قصير، وقال الناس: إنها أبحرت عائدة إلى أنكلترا إلا أنه لا يوجد شيء موثق.

وسرعان ما تحولت قصة الحرف القرمزي إلى ما يشبه الأسطورة لدى الناس، وفي أحد الأيام كان الصبية يلعبون بجوار الكوخ الذي سكنته هيستر وابنتها والذي هُجر بعد ذلك، شاهدوا امرأة طويلة القامة ترتدي ثوباً رمادياً تقترب من باب الكوخ الذي لم يتجرأ أن يفتحه أحد منذ أن غادرته ساكنتاه فتحته المرأة ودخلت إلى وسط الغرفة.

علم الناس فيما بعد أن هيستر عادت للسكن في المنزل التي عاشت فيه يوماً مع ابنتها، لكن أين ابنتها؟ لماذا لم تحضرها معها؟ لابد أنها قد أصبحت فتاة يافعة الآن.

ثم توالى وصول الرسائل والطرود البريدية التي تحمل الهدايا النفيسة إلى هيستر، وعلم الناس فيما بعد أنها من بيرل التي تزوجت واستقرت مع زوجها في أنكلترا.

عادت هيستر بمحض إرادتها لتعيش في نيو إنجلند في المكان نفسه الذي شهدت فيه أقسى سنوات حياتها وهي تدفع ثمن الخطيئة التي اقترفتها، وعادت لارتداء الحرف الذي أشار إلى جريمة الزنى التي ارتكبتها، ارتدته بمحض إرادتها هذه المرة ودون ضغط من أحد، ولم يفارق صدرها بعد ذلك طوال حياتها، إلا أنه لم يعد في أعين الناس يشير إلى الخطيئة التي ارتكبتها بل أصبح موضع تبجيلهم وتوقيرهم لها، وإشارة إلى مدى ورع حاملته، وأصبح من عادة نسوة البلدة أن يأتين إلى كوخها ليستشيروها في أمور حياتهم ومشكلاتهم، واستمرت على هذا المنوال إلى أن توفيت وكتب الناس على شاهدة قبرها عبارة:

هنا ترقد مَن طهرها الحرف "A"

النهاية

****

الكاهن والخمار الأسود

****

وقف القندلفت[1] تحت رواق الكنيسة في ميلفورد وسحب حبل الجرس المدلى مرات عدة، أقبل كبار السن في القرية مسرعين مع الأطفال المبتسمين الصاخبين ووالديهم الذي ارتدوا ثياب يوم الأحد وراحوا يدخلون الكنيسة، ثم جاء الموقر السيد هوبر ورمق القندلفت بنظرة معينة فهم منها الأخير أنه يطلب منه التوقف عن سحب حبل الحرس.

- ما الذي تضعه على وجهك يا حضرة الموقر؟! صاح القندلفت مدهوشاً.

إلا أن الموقر لم يجب وتابع طريقه إلى داخل الكنيسة..

- هل أنت متأكد أنه الموقر هوبر؟ سأل أحدهم.

أجاب القندلفت:

- طبعاً..إنه الموقر السيد هوبر.

السيد هوبر شاب عزب في الثلاثين يرتدي ملابس كهنية أنيقة ونظيفة، الشيء الوحيد الملفت للنظر فيه هو عصابة لفها حول رأسه ربط إليها من أمام وجهه خماراً أسود حجب وجهه وأصبح لا يُرى منه سوى الفم والذقن، كان خماراً رقيقاً لكي يتمكن من النظر من خلاله.

****

[1] - **القندلفت: مرتبة دينية كنسيّة.**

مضى السيد هوبر داخلا الكنيسة بخطوات ثابتة محييا بإيماءة من رأسه كل من يعرفه، إلا أنه نادراً ما تلقى أي رد منهم على تحيته بسبب ذهول الناس واستغرابهم منه.

- وكأنه ليس وجه السيد هوبر الذي يختبئ خلف ذلك الخمار...قال القندلفت.

- لم أستلطف هذا..تمتمت امرأة عجوز، لقد تحول إلى شيء مخيف عندما أخفى وجهه.

صاح أحد الرجال:

- لقد فقد الموقر عقله..

ساد صخب في القاعة، لوى الكثير من الرجال أعناقهم لرؤية الموقر ذي الخمار وهو يتقدم الصفوف، ووقف آخرون واستداروا نحوه غير مصدقين لما يرون، بينما صعد بعض الصبية على مقاعدهم وراحوا ينظرون إلى هذا المنظر الغريب، إلا أن السيد هوبر مضى في طريقه غير آبه باضطراب الناس حوله إلى أن صعد الدرجات ووقف على المنبر ثم ألقى موعظته دون أن يميط الخمار عن وجهه.

كان الخمار يضرب ويرفرف وفقاً لزفراته وكلماته التي تخرج من فمه، كانت موعظة تدول حول الخطيئة السرية التي نخفيها عن أقرب المقربين منا رغم علمنا أن الله العليم سيعرفها، تكلم بكل أحساسيه وأثر في الجميع، والكثير من المصلين أمسك بيديه وضمهما إلى صدره.

وعندما انتهت الموعظة خرج الناس من الكنيسة، وتجمع بعضهم في حلقات وراحوا يتكلمون حول الموقر وعظته المؤثرة وقناعه الغريب، اعتبر بعضهم أن هناك سراً وراء الخمار الذي يضعه، بينما مال آخرون إلى الاعتقاد بعدم وجود أسرار، وأن الأمر لا يعدو كونه حساسية عيني الموقر لضوء النهار بسبب إجهادهما في القراءة ليلاً على ضوء القنديل.

خرج الموقر أخيراً من الكنيسة وحيّا الناس المتحلقين هنا وهناك بإيماءة من رأسه كما يفعل عادة، ومسح على رؤوس الأطفال في طريقه ليمنحهم بركاته، لم يتجرأ أحد على المشي معه كما يفعل بعضهم عادة، ولم يدعه العجوز سكوير لتناول طعام الأحد معه كدأبه منذ إنشاء هذه المستوطنة البيوريتانية، عاد إلى منزله وأغلق الباب خلفه وسط نظرات الناس التي تلاحقه.

علقت امرأة قائلة:

- من الغريب أنّ خماراً عادياً أسود كالذي ترتديه أي امرأة أثناء الحِداد يتحول إلى شيء مرعب عندما يرتديه رجل مثل الموقر هوبر.

- لابد أن أمراً ما حدث لعقله، علق زوجها الطبيب..ومن الغريب أن هذا الخمار الذي يغطي وجهه فقط قد أثر في كامل شخصيته وجعله يشبه الأشباح من رأسه إلى أخمص قدميه..ألم تشعري بهذا أنت أيضاً؟

- نعم...طبعاً..أجابت المرأة..ولا أتمنى أن أكون وحيدة معه في أي مكان في العالم، كيف أتساءل كيف لا يخاف أن يجلس وحيداً مع نفسه؟

وأقيمت صلوات المساء بالظروف نفسها، وبعد أن انتهت دُق الجرس من جل جنازة امرأة شابه تجمع أقاربها وأصدقاؤها في الكنيسة، بينما وقف أقاربها الذين لا تربطهم صلات وطيدة معها في الخارج يتكلمون عن الخصال الحميدة التي كانت تتمتع بها الفقيدة، وما لبثوا أن سكتوا فجأة عندما وقعت عيونهم على الموقر ذي الخمار الأسود، دخل الموقر إلى المكان الذي سُجيّ فيه التابوت وانحنى فوق جثة المتوفاة ليقوم بصلوات الوداع، وما لبث أن ابتعد بسرعة وكأنه خشي أن تفتح المتوفاة عينيها فجأة وتنظر إلى وجهه وهي مسجاة في نعشها.

وفي تلك الليلة كان عليه أن يعقد قران زوجين سعيدين في الكنيسة، وجاء الموقر بخماره مما أضفى على المناسبة السعيدة مسحة من الحزن والكآبة، وقف العروسان أمامه وارتعشت يد العروس وهي تمدها لعريسها ليلبسها خاتم الزواج، وعندما رفع السيد هوبر كأس الخمر إلى شفتيه كما هي العادة المتبعة متمنياً السعادة للعروسين، لاحظ أن عليه إماطة جزء من الخمار المدلى على فمه ليتمكن من الشرب من الكأس، ارتعد من هذه الفكرة وأنزل الكأس من يده ثم اندفع خارجاً.

وفي اليوم التالي كان شغل القرية الشاغل خمار الموقر هوبر والغموض المحيط به، وأضحى من النادر أن ترى صديقين التقيا في

الشارع، أو جارة تتكلم مع جارتها إلا وهم يتحدثون في هذا الأمر، أصبح موضوع الكلام الأول لأي لقاء بين أي شخصين، حتى الأطفال في غدوهم ورواحهم إلى المدرسة، إلا أنه مع ذلك لم يتجرأ أحد على الاستفسار من الموقر عن سبب ارتدائه ذلك الخمار، إلى أن قرروا في النهاية أن يرسلوا إليه وفداً من كبراء القرية والكنيسة لكي يستفسروا منه عن أمر هذا الخمار الغريب الذي يصر على ارتدائه في كل المناسبات قبل أن يتحول أمره إلى أضحوكة على ألسن الناس.

استقبلهم الموقر بالترحاب والوجه البشوش الذي عرف به إلا أنه التزم الصمت على غير عادته بعد أن استقر بهم المجلس، وهكذا جلسوا ينظرون إليه بصمت وهو ينظر إليهم من تحت خماره دون أن يتجرأ أحدهم على الكلام، وأخيراً عادوا إلى منازلهم خالي الوفاض معلنين أن الأمر أعقد مما تصوروا.

امرأة واحدة في القرية لم يرعبها الخمار الأسود الذي يرتديه الموقر كما أرعب سائر الناس في القرية ألا وهي خطيبته، وعندما عاد الوفد خالي الوفاض من منزل الموقر دون معرفة سر الخمار، أو حتى التجرؤ على الاستفسار قررت بكل هدوء وثقة أن تصل إلى الحقيقة، وهكذا دعت الموقر إلى زيارتها في منزلها، وبعد أن جاء واستقر به المجلس ثبتت عينيها على الخمار، لم ترَ فيه شيئاً مخيفاً، إنه لا يعدو عن كونه قطعة قماش سوداء شفافة تتدلى من جبهته إلى فمه وتتحرك من جهة فمه كلما تكلم.

ابتسمت وقالت:

- لا يوجد ما يخيف في قطعة القماش هذه سوى أنها تخفي الوجه الذي أسر دائماً برؤيته..هيا أيها الرجل الطيب اخلع خمارك ودع الشمس تلامس صفحة وجهك، وقل لي ما سر هذا الخمار؟

ابتسم السيد هوبر ابتسامة باهتة وقال:

- ستأتي الساعة التي سيتوجب فيها على الجميع نزع الخُمُر التي تغطي وجوههم، أرجو ألا تستائي أيتها الصديقة الفاضلة إذا فضلت ارتداء هذا الخمار إلى تلك الساعة.

- أنت تُلغز كلامك..أرجو أن تتكلم بوضوح أكثر.

تنحنح الموقر وقال:

- اعلمي يا إليزابيث أنني آليت على نفسي ارتداء هذا الخمار طوال حياتي في الليل والنهار..عندما أكون بمفردي وأمام الناس، أمام الأصدقاء، وأمام الغرباء، لن يرى أحد وجهي بعد الآن.

- ما الذي ألمَّ بك ليجعلك تنزل لنفسك هذه العقوبة؟

- إنه دلالة على حزني الشديد..أجاب السيد هوبر.

- ولكن ماذا لو لم يصدق الناس أنك تخفي وجهك بسبب حزنك الشديد؟! سألت إليزابيث..ستسري الشائعات بين الناس أنك لجأت إلى

هذا تكفيراً عن ذنب اقترفته، أرجوك تجنب هذه الفضيحة، على الأقل من أجل مركزك الديني.

ابتسم الموقر ابتسامة باهتة وقال:

- يكفي أنني أعرف أنني أخفي وجهي من أجل أحزاني، وإذا قالوا: إنني أخفيت وجهي بسبب ذنب اقترفته فلِمَ لا يحذو حذوي كل الخطائين؟

التزمت إليزابيث الصمت بعد هذا العناد وراحت تفكر في أسلوب آخر لثنيه عن قراره الغريب الذي يكاد يرقى إلى مستوى الجنون، انهمرت الدموع من عينيها عندما وصلت إلى هذا الحد من التفكير، ونظرت إلى الخمار وانتفضت واقفة ثم راحت ترتجف وأسرعت بمغادرة الغرفة وهي تبكي، اندفع خلفها وأمسك بذراعها.

- أرجوك تحلي بالصبر يا إليزابيث، صاح بحب..لا تهجريني ولا تدعي هذا الخمار يفرق بيننا، أنت لا تعلمين ما أكابده وكم أشعر بالوحدة والخوف، أرجوك لا تهجريني.

- إذاً اخلع خمارك ولو لمرة واحدة وانظر إلى وجهي.

- لا...لا أستطيع..أجاب السيد هوبر.

- إذاً وداعاً..قالت إليزابيث.

سحبت ذراعها من قبضته وانسحبت ببطء على أمل أن يناديها عند آخر لحظة ويغير رأيه، إلا أن هذا لم يحصل أبداً.

لم يحاول أحد منذ تلك اللحظة ثنيه عن قراره الغريب، أو محاولة معرفة سر الخمار، واعتبر الجميع أن الأمر لا يعدو كونه غرابة أطوار من الموقر من النوع الذي يعتري المثقفين والعلماء أحياناً بسبب انكبابهم الشديد على العلم، وبات سكان القرية يهابونه ولا يتجرأ أحد على استيقافه في الشارع للتكلم معه كما كان يفعلون في السابق، بل يتغامزون عليه كلما مرّ، حتى الأطفال أصبحوا يهربون من طريقه كلما مرّ من أمامهم وهم يلعبون في الطرقات بعد أن كانوا يندفعون نحوه كلما رأوه ليمسح شعورهم بيده طلباً لبركته، مما آلمه هذا وحزّ في نفسه، لأنه علم أن كل هذا بسبب الخمار الذي آلى على نفسه أن يرتديه طوال حياته، كره خماره وأصبح لا يطيق النظر إلى وجهه في المرآة لكي لا يراه، وهذا ما حدا بالناس إلى التهامس فيما بينهم أن ضميره يعذبه بسبب ذنب عظيم ارتكبه.

إلا أن الخمار الأسود كان له تأثير رائع على مواعظه بشكل جعل سامعيه يسعون إلى الاعتراف بخطاياهم، وبات موضع احترام مَن هداهم منهم، حتى إن الخطائين الذين هم على فراش الموت يصيحون طالبين حضوره قبل موتهم لكي يعترفوا له.

وبهذه الطريقة أمضى السيد هوبر حياته بعيداً عن مناسبات الناس الاجتماعية، محاطاً بهالة من الغموض والشكوك، محبوباً من رعاياه ولكن ليس إلى الدرجة التي تجعلهم يتجرؤون على دعوته لتناول العشاء معهم، رجل بعيد عن الرجال لا يُستدعى إلا عند اقتراب وفاة أحدهم.

ومع مرور السنين حاز على لقب في كنائس نيو إنجلند ألا وهو الأب هوبر، وعندما حانت ساعة فراق هذه الدنيا تحلق حول سريره الطبيب وبعض الكهنة والموقر الجديد الشاب السيد كلارك الذي أسرع مهرولاً لتلاوة صلواته على جسد الموقر العجوز الذي يحتضر، كما كانت هناك ممرضة مسنة تمتاز بالهدوء والكفاءة، إنها إليزابيث..تمدد الأب هوبر على فراش الموت والخمار فوق وجهه كما كان طوال حياته، لقد منعته قطعة القماش هذه عن صحبة الناس وعن التمتع بمباهج الحياة، وعن التزوج بالمرأة التي أحبها، وأبقته في سجنه الحزين الذي اصطنعه لنفسه.

اقترب من موقر ويستبوري وقال:

- حضرة الموقر الأب هوبر، ألم تحن اللحظة بعد لرفع الخمار عن وجهك قبل مغادرتك هذه الحياة الفانية؟

أشار الأب المحتضر بيده إشارة فهم الموقر الشاب منها أنه يوافق على ذلك، ولكن ما إن همّ برفع الخمار عن وجهه حتى تفاجأ الجميع بالقوة العجيبة التي هبطت على الموقر هوبر والتي جعلته يمسك بكلتا يديه وبكل قوته بيد الموقر الشاب الذي حاول رفع الخمار وصاح بكل ما أوتي من قوة:

- لا....لا.

- أيها العجوز..صاح الموقر الشاب الخائف..ما الجريمة التي اقترفتها في حياتك لتجعلك تختبئ خلف هذا القناع؟

نهض الأب هوبر بكل ما تبقى له من قوة وصاح بهم:

- لماذا انتم تصرون على خلع خماري؟! لقد تحملت أذى المجتمع من أجله.. تحملت نظرات الرجال وغمزاتهم..تحملت هروب الأطفال من أمامي..تحملت هجران المرأة التي أحببتها من أجله..دعوني أفارق هذه الدنيا وأنا أرتديه وسري في صدري علّ خالقي يطلع على ذنبي فيغفره لي، لن أفشيه لكم الآن أبداً أبداً، كونوا على يقين من هذا...أنظر حولي فلا أرى سوى وجوه يجدر بها أن تضع خمراً تخفي آثامها مثلي..

بهذه الكلمات لفظ الأب هوبر أنفاسه الأخيرة.

وضعوه في كفنه والخمار على وجهه....ودفنوه وخماره إلى وجهه..ترى هل سيلقى ربه والخمار على وجهه..!!

النهاية

****

السيد براون

****

أطلّ السيد براون الشاب برأسه عند غروب الشمس من باب منزله في قرية سالم بعد أن ودّع زوجه.

همست الزوجة فيث التي أوصلته إلى الباب بلطف وبحزن:

- أرجوك أجّل رحلتك إلى الصباح الباكر ونم في بيتك الليلة، أرجوك امكث معي الليلة..أنا خائفة.

- ولكن يا حبيبتي رحلتي يجب أن تنجز كما تعلمين ما بين الآن وغروب الشمس.

- كما تريد..أجابت فيث وهي تتنهد..فليحمك الرب.

- آمين..صاح براون الصالح، صلّي من أجلي يا عزيزتي فيث ثم اخلدي للنوم ولن تشعري بالخوف.

وهكذا افترقا ومضى الزوج الشاب في طريقه إلى أن وصل عند المنعطف، استدار برأسه قبل أن ينعطف ليجد رأس زوجته ناتئاً من باب منزله وهي تتبعه بنظراتها.

مسكينة فيث..قال لنفسه..كيف أتركها من أجل هذه المهمة، ذكرت لي أحلاماً مزعجة تراودها وكأنها تعرف ما العمل الذي سأقوم به الليلة..هذه آخر مرة أقوم به.

حثّ خطاه بعد قراره الحاسم الذي اتخذه ثم سلك طريقاً مختصراً داخل الغابة.

راح يفكر وهو يسير في ذلك الطريق الموحش: من يدري من يختبئ خلف تلك الأشجار؟ قد يكون أحد الهنود الشرسين..ثم ألقى نظرة خائفة خلفه..وماذا لو كان الشيطان نفسه يتبعني؟!

اجتاز منعطفاً في الطريق ونظر أمامه فوقعت عيناه على رجل جالس على جذع شجرة قديمة ملقاة على الأرض، نهض لدى اقتراب براون منه وتقدم نحوه.

– تأخرت يا سيد براون..قال الرجل..كانت ساعة الكنيسة تدق عندما جئت من طريق بوسطن، كان ذلك قبل خمس عشرة دقيقة.

– لقد أخرتني فيث..أجاب الشاب مرتعداً لكونه لم يتوقع رؤية الرجل بهذه السرعة.

كان الوقت عند الغسق في الغابة عندما تابع الرجلان مسيرهما، صديق السيد براون في حوالي الخمسين من العمر ويشبهه إلى حد كبير رغم فارق العمر بينهما ويتوكأ على عصا طويلة.

صاح الرجل:

- خذ عصاي وتوكأ عليها إن كنت تشعر بالتعب فالطريق مازال طويلاً أمامنا.

توقف براون وقال:

- لقد غيرت رأيي..سأعود من حيث أتيت، لدي شكوك حول الأمر.

- صحيح..أجاب الرجل مبتسماً..دعنا نكمل طريقنا ونتحدث في الأمر في الوقت نفسه، ويمكنك العودة متى شئت إن لم أستطع إقناعك..نحن لم نتوغل في الغابة بعد.

تابع براون طريقه قائلاً:

- حسناً..رغم أن والدي لم يدخل الغابة من أجل مهمة كهذه، ولا حتى جدي، نحن مسيحيون شرفاء، وسأكون أول شخص من آل براون يسلك هذا الطريق.

- أيها الرجل الطيب..قال صديقه، أنا أعرف عائلتك كما أعرف جميع البيوريتانيين هنا، وقد ساعدت جدك آمر السجن ذات يوم عندما جلد تلك المرأة من جماعة الكواكر في شوارع قرية سالم، كما ساعدت أبيك في إضرام النار في تلك القرية الهندية، كانا صديقين حميمين لي ولطالما تمشينا في هذا الطريق بعد أن عدنا مبتهجين في منتصف الليل لقد قبلت صداقتك من أجلهما.

- ولكنني لم أسمعهما يتكلمان في هذه الأمور..قال السيد براون، ربما تحاشيا ذلك من أجل الفضيحة التي قد تلحق بهما وتتسبب بطردهما من نيو إنجلند..نحن أناس نحب الصلاة والعمل الصالح، ونتجنب القيام بأعمال شريرة كهذه.

- نعم..هذه أسرار دولة، أجاب الرجل ذو العصا.

مضيا في طريقها، وبعد قليل أشار الرجل بعصاه إلى امرأة بعيدة عنهما عرفها السيد براون.

- إنها سيدة تقية علمتني العقيدة في صغيري، ومازلت أعتبرها مصدر النصيحة التي ألجأ إليها.

- أستغرب وجودها في الغابة ليلاً..قال الرجل، أستأذنك أن أمشي بمفردي بين الأشجار ريثما نبتعد عنها، فقد تسألك عني باعتبارها تعرفك.

- كما تريد..أجاب السيد براون..

ثم تقدم من المرأة المسنة وقال:

- آه..أراك هنا أيتها السيدة الطيبة، ماذا تفعلين في الغابة في هذا الوقت المتأخر؟

- أنا ذاهبة إلى الاجتماع، أخبروني أن هناك رجلاً رائعاً سيتكلم الليلة.

ويبدو أن الرجل ذا العصا عرفها عندما أصبح قريباً منها فخرج من مكانه وقال:

- مرحباً أيها السيدة الطيبة كلويس، هل أنت ذاهبة إلى الاجتماع أيضاً؟

- آه..أهلا يا بني، أجابت السيدة كلويس.

ثم نظرت إلى السيد براون وقالت:

- يبدو أنكما تعرفان بعضكما.

هزّ السيد براون رأسه وقال:

- نعم..لقد التقينا من قبل.

ثم مضى الثلاثة في طريقهم ببطء دون أن يتبادلوا أي حديث، تناهى إلى مسامعهم بعد قليل أصوات جياد تقترب منهم، أسرع الثلاثة بالاختفاء على حافة الطريق المظلم بين الأشجار الكثيفة، مرّ الراكبان على ظهر جواديهما دون أن يلاحظا وجودهم، خيّل للسيد براون أنه سمع صوت الكاهن والشماس[1] كوكين وهما يتبادلان أطراف الحديث أثناء مسيرهما.

****

[1] - **وظيفة دينية.**

قال الشماس:

- أفضّل أن تفوتني دعوة عشاء على أن أضيّع فرصة اجتماع الليلة أيها الموقر الفاضل، سمعت أن أشخاصاً سيأتون من فالموث ومن كونيكت ومن رود.

- يجب أن نسرع أيها الشماس كوكين لئلا نتأخر.

وخزا فرسيهما وابتعد الصوتان عن السيد براون، خرج الثلاثة من مخبئهم وتابعوا طريقهم بصمت وسط الغابة المظلمة، كان السيد براون سارحاً في أفكاره عند زوجته الشابة الخائفة في المنزل حيث تركها، قطع تأملاته صوت صديقه ذي العصا وهو يقول:

- ها قد وصلنا.

رأى السيد براون أشخاصاً كُثراً متحلقين حول مشاعل عالية تضيء بقعة الاجتماع في الغابة بضوء برتقالي غريب، عرف بين الوجه أشخاصاً يراهم في الكنيسة كل يوم أحد، وزوجة الحاكم، وبعض النسوة البارزات في القرية، وبعض وجهاء القرية، كان الشماس كوكين قد وصل مع الكاهن ووقف يتحدث مع بعض الأشخاص ريثما يتهيأ الكاهن.

قطع سكون الليل ترنيمة بطيئة ووقورة أتبعها غناء الجوقة بشكل متناغم عميق لعدة دقائق ثم ساد صمت عميق..

سمع السيد براون صوتاً عميقاً ترددت أصداؤه في المكان:

- أحضروا المهتدين الجدد إلى مذهبنا.

تقدم بعض النسوة والرجال، وابتسم الحاضرون لهم، سمع السيد براون رجل لم يعرفه يقول:

- أهلاً بكم يا أولادي في مذهبنا، كنتم تعتقدون أن الفضيلة هي الأساس وأن لا مكان للشر في القلوب، لأؤكد لكم أنكم مخطئون، الشر هو الأساس، هو الذي يسود العالم، الشر هو سعادتكم الحقيقية..كم مرة همس رجل وقور في أذن خادمه بأشياء شريرة يريدها؟! كم امرأة سممت زوجها في غفلة منه لتتخلص منه أو لترثه؟! كم شاب سمم والده طمعاً في ثروته؟ وكم فتاة دفنت رضيعها خوفاً من الفضيحة؟ الشر يملأ المكان..أهلاً بكم بيننا.

صحا السيد براون في اليوم التالي ليجد نفسه نائماً على حافة الطريق في تلك الغابة، التفت حوله لم يجد أحداً ممن رآهم في الليلة الماضية، لم يجد الرجل ذا العكاز ولا تلك المرأة التقية ولا الشماس كوكين، كانت الشمس قد بدأت ترتفع في السماء، وبدأت العصافير تزقزق في الغابة التي استعادت بهجتها..عاد إلى قريته وهو يفكر في أحداث الليلة الفائتة..ترى ماذا حدث؟! هل كان يحلم؟! هل غالبه النعاس فنام في

الغابة؟! هل ما رآه بسبب مخاوفه من السير بمفرده في الغابة المظلمة؟ عشرات الأسئلة خطرت بباله دون أن يجد إجابة مقنعة لها.

وصل إلى القرية تعباً ويشعر بمغص شديد في بطنه بسبب الليلة التي قضاها في العراء، التقى بكاهن القرية العجوز وهو يتريض صباحاً كعادته كل يوم ليستنشق الهواء العليل ويفكر في موضوع موعظته التالية، ومنح بركاته للسيد براون عندما مرّ بجانبه..ثم لمح الشماس كوكين وهو يخرج من أحد منازل القرية بعد أن صلى لرجل مريض، ورأى السيدة كلويس وهي جالسة على عتبة دارها وجانبها طفلة صغيرة تعلمها تعاليم المذهب البيوريتاني في قصيدة خاصة محببة كما تفعل عادة مع جميع أطفال القرية، وكما سبق وفعلت معه في صغره.

وعندما انعطف السيد براون إلى زقاق منزله وجد زوجته تطلّ برأسها من النافذة كما تركها وتنظر إلى نهاية الشارع تنتظر عودته بمزيج من الخوف والأمل، وما إن لمحته حتى تهلل وجهها وانفرجت أساريرها، ثم فتحت باب المنزل وهرعت إليه لترتمي في أحضانه وكادت تقبّله أمام المارة في ذلك المجتمع المحافظ المتدين.

- هل حضرت الاجتماع؟ سألته.

- لا أدري..أريد مشروباً ساخناً فبطني يؤلمني..قال الزوج الشاب.

نظرت إليه الزوجة باستغراب ولم تلح عليه بالأسئلة أكثر من ذلك بل انصرفت إلى المطبخ لإعداد كوب من الشاي الساخن.

قالت وهي في المطبخ تعد الشاي:

- لقد خفت كثيراً الليلية الفائتة ولم أستطع النوم، هل ستعود إلى مثل هذه الاجتماعات الليلة مجدداً؟

- لا أظن هذا..قال السيد براون..لن أعود إلى مثل هذه الاجتماعات مجدداً ولن أسلك طريق الغابة ليلاً.

وعندما عادت بكوب الشاي الساخن وجدت زوجها وقد تمدد على الأريكة وغطّ في نوم عميق...

تمت

****

المحتوى | رقم الصفحة

المحتوى	رقم الصفحة

المحتوى	رقم الصفحة

علي مولا



دار أسامة

دمشق - مجمع فكتوريا التجاري - تلفون ٢٢٣٢٣٢٦ فاكس ٢٢٤٨١٨٠ - ص. ب ٤٣٠٦